الإمتاع والمؤانسة لأبي حَيَّانِ التَّوْحِيدِيِّ

الدكتور كمال جبري أمين عبهري*

ABSTRACT

This research studies the: " Book of Entertainment and "مؤانسة" and the character of its author " The paper studies the book contents in order to highlight its scientific values also it represents a study of Al-Twhidis character, his style of writing and treatment of the subject.

The book deals with many issues in the fields of philosophy, logic, rhetoric linguistics, politics, ethics, Al-Hadeeth literature, lamguage, nature and animal life.

Also it analyzes the character of the philosophers, and writers of his time. In addition to all that, it studies the traditions and habits of his age.

The topics of the books cover forty nights. They were discussed in IBN AL-Areth sallons (hall room).

Every night, Ibn Al-Areth used to give a number of cases, either improvised of written ones, in order to study and review or to give him the chance to revert to his instructors (sheikhs).

The value of the book is shown evidently in its methodology and in its way of dealing with various issues.

The book is unique in its treatment of the intellectual attitudes of the group named: " Akhwan Al-Safa" also the debate held in Baghdad between the well known scholar (from the Mu`tazela group) Abu Sa`d Al-Sirafy, and the Christian pragmatist Beshr Bin Younis, concerning the comparison between the Greek logic and Arabic Grammar which represents the intellectual crises between: Al-Mu`tazela group and Ahl Al-Buda.

رئيس قسم اللغة العربية كلية أصول الدين الجامعية- جامعة البلقاء التطبيقية عمان- الأردن

بَدَأَتْ صِلَتِي بأبي حَيَّانِ التَّوْحِيدِيِّ – لأَوَّلِ مَرَّةٍ – منذُ فَتْرَةٍ قَرِيبَةٍ، ومَبْعَثُ هَذِه الصِّلَةِ أَنَّ صَديقاً لي قد طَلَبَ إِليَّ أَنْ أكتبَ بحثاً مُتَواضِعاً عن كِتَابٍ مَشْهُورٍ، هو كتابُ " الإِمْتَاعِ والمُؤَانَسَةِ " للتَّوْحِيدِيِّ هذا، و كنتُ قبلَ ذلكَ، لا أَكَادُ أَعْرِفُ عن صَاحِب هذا الكتَابِ شَيئاً. وربما كانَتْ هَذهِ المعرفةُ لا تَعْنِينِي في كثيرٍ أو قَليلٍ، بل كنتُ أظنُّ أَنَّ التوحيديَّ، هو أَبو حيَّان الأَندلسيّ النحويُّ المفسِّرُ، صَاحِبُ كِتَابِ " البَحرِ المُحيطِ " في تَفْسِيرِ القُرْآنِ، الذي عَلا ذِكْرهُ، وشَاعَ أَمْرُهُ في القَرْنِ الثَّامنِ الهِجْرِيِّ.

وحيَن فَزِعْتُ إِلى المصَادِرِ التي عَنِيَتْ بأَمرِ التوحيديِّ، أَسْتَنْفِرُها بَحثاً عن مَعالِمِ شَخْصِيَّتِهِ، واسْتِقْرَاءً لِسِيرَةِ حَياتِهِ، تَبيَّنَ لي أَنَّ التوحيديَّ رجلٌ آخرُ مختلفٌ تماماً عن الأَندلسيِّ في كُلِّ شيءٍ، مختلفٌ عنه في العِلْمِ والثَّقَافَةِ، وفي السُّلُوكِ والسِّيرَةِ، وفي طِرَازِ التَّفْكيرِ، ومختلفٌ عنه أَيضاً في النَّظْرَةِ إلى الأَشْيَاءِ التي تُحِيطُ به، وفي النَّظْرَةِ إلى الرجالِ الذينَ يَتَّصِلُونَ بهِ أَو يَتَّصِلُ بِهِمْ.

وقد دفعتني شخصيّة التوحيديّ – التي بدت لي غريبة – إلى النظر و الدراسة و الفكر، وأغرتني بتعقّب سيرته، واستقراء واقع شخصيته، وكشف أهوائه وميولهِ، وتأمّل طريقته في التفكيرِ، فوجدت نفسي – دفعة واحدة – بإزاءِ رجل مفكّرٍ، له طابعه المتميّز في التفكيرِ، ومذهبه المتفرّد في فلسفة الحياةِ، وفي الحديثِ، وفي تناولِ الموضوعاتِ، وفي أسلوبِ معالجتِها.

وانْطلقتُ أبحثُ عن كتابِ " الإمتاعِ والمُؤَانَسةِ " في المكتبات العامَّة و الخاصَّةِ، و حينَ وقعَ بين يديَّ، طفقتُ أُقَلِّبُ صَفَحاتِهِ تَقْلِيباً سَرِيعاً في أوَّلِ الأمْرِ، ثُمَّ بَدا ليْ، أَنَّ الكِتَابَ جَدِيْرٌ بالدِّرَاسَةِ وإمعانِ النَّظَرِ في موضوعاتِهِ ومَسَائِلِهِ، وفي أُسْلُوبِ تَنَاوُلِهِ لهذهِ الموضُوعَاتِ والمَسَائِلِ، ووَجَدْتُ فيهِ صورةً واضِحَةَ الأبعادِ لروحِ العصرِ الذي عاشَ فيهِ مُصَنِّفُهُ، ولرجالِ ذلِكَ العَصْرِ من ذوِي النُّفُوذِ والمُفَكِّرِينَ والعلماءِ وغيرهم، ولواقعِ المجتمعِ ووَضْعِهِ الاقتصاديِّ، وما إلى ذلك، فعرفتُ – حينئذٍ – أَنَّ صديقي هذا كانَ على حقٍ حينَما نَدَبَني لِدِراسَةِ هذا الكِتابِ، وكَشْفِ خَبَايَاهُ وفَلسَفَتِهِ واتِّجَاهَاتِهِ.

على أن اطلاعي على كتاب: " الإمتاع والمؤانسة " قد ساقني سوقا رفيقا إلى البحث عن غيره من مصنفات التوحيدي، وحملني على النظر فيها، فوجدت أن لها مذاقا أدبيا خاصا. وقد أثار ذلك في نفسي رغبة جامحة إلى البحث، وميلا شديدا إلى الدراسة، لأنني أصبحت معنياً بصاحب الكتاب في كل شيء، وراغبا في كشف واقعه ومستوره، وفي سبر أغوار نفسيته وعقليته.

ومهما يكن من أمر التوحيدي، فإن أدبه قد شد إليه أنظار الدارسين المحدثين، فعنوا بأمره عناية ظاهرة، وأجهدوا أنفسهم في الوقوف على نمط حياة التوحيدي بمزيد من الدقة والتفصيل، فأعياهم البحث والتنقيب، ووجدوا أبواب بعض جوانب حياته موصدة، فلم يستطيعوا أن يتبينوا معالمها، ولكنهم – مع ذلك – نجحوا في التعريف به، وفي إبراز ملامح أدبه وفنه، والكشف عن بعض مزاياه، والتنبيه على مواطن الألم والمعاناة في حياته.

وحظي كتاب "الإمتاع والمؤانسة" بعناية نفر من الأدباء والنقاد والباحثين، فتناولوه بالدراسة والنقد والتحقيق، وحملوا أنفسهم على معرفة حياة مصنفه وفلسفته ونظرته إلى الحياة، مما أتاح لي أن أجني فائدة لا تنكر من حصيلة جهودهم وآرائهم، ويسر لي سبل التناول والدراسة، وجعلني أقف على هذا الكتاب وقفة متأنية، وأكشف عن ظروف تأليفه، وأعرض بعض موضوعاته، وأظهر قيمته الأدبية وملامحه الفنية، وأشد النظر إلى مدى تأثره بغيره من المصنفات التي جاءت قبله، وما شاكل ذلك من المسائل والقضايا.

حياة التوحيدي ونشأته

أسمه علي بن محمد بن العباس ، وكنيته أبو حيان ، والتوحيدي أبوه ، الذي كان تاجراً متنقلاً يبيع نوعاً من التمر يسمى " التوحيد" فنسب إليه حتى شهر به ، وأصبح علماً عليه .

وبدا لي في أثناء النظر في طائفة من المصادر والمراجع التي أرَّخَتْ للعصر العباسيّ، أن حياة التوحيدي، ونشأته يلفُّها ستار كثيف من الغموض ، وأنه قد لحق بهذه الحياة شائبة من التعتيم، حتى بات من العسير على الباحث المدقق أن يتبيَّنَ معالمها و أبعادها تبيُّناً جليَّاً. ذلك أنَّ العلماء الذين عنوا بسيرته قد اختلفوا في أصله ونشأته، فمنهم من زعم أنَّه فارسي من أصلٍ شيرازي أو نيسابوري أو أوسطي، ومنهم من نصّ على أنه عربي صميم، ولد في بغداد حوالي سنة : 310هـ، ونشأ بها لأبوين فقيرين، ثم وفد – بعد ذلك إلى شيراز، ومنهم من ذكر أنه كان من أولئك الموالي الذين اختلطت فيهم الدماء والعناصر، فكونت مزيجا غريبا وكان يشعر بوشيجة قربى مع الغرباء والأفاقين. وما هذا إلا لشعوره بأنه واحد منهم ، إذ كان يرتد إليهم مهما زجره عن ذلك زاجر من كبار القوم [1]

وأخبار طفولته وعلاقته بأسرتهِ، وصلتهِ بإخوته وذويه بقيت في ذمة الغيب، إذ لا نكاد نعثر على مصدر واحد ينقل إلينا ما يشفي الغليل من أنباء سيرته، ذلك أن الرجل قد خسر كل شيء في جاري سنيّ عمره، فعاش حياة طويلة مليئة بالشقاء والحرمان، ومنعه شعوره بالنقص من الخوض فيها، فلاذ بالصمت الذي كان ابلغ من كل كلام في كشف المخبوء من آمره [2]

فلم نعثر في سائر كتبه على بصيص من تاريخ حياته وجذوره وأصوله وذهبت ألتمس أسبابا ذلك وأتساءل في نفسي أذلك مرتبط بالتوحيدي وعلاقته بغيره من الناس في عصره؟ أم هو متصل بمصنّفي كتب الطبقات والسير؟ أم يكمن هنالك سبب مهم قد صرف المؤرخين والرواة عن العناية بأمر الرجل، فتخففوا – لذلك- من ذكر أخباره؟ وقد عوّدنا مؤرخو سير الرجال أن يزهدوا بأخبار أولئك الذين يغمز جانبهم كغماز التين، ويطعن فيهم طعن معيب، وتنالهم ألسنة خصومهم وغير خصومهم، إذا يغدو أمر الاهتمام بهم سبة ونقيصة. يدل على ذلك قول ياقوت[3] : " أن

أحدا لم يذكره في كتاب ، ولا دمجه في خطاب " وقول زكي مبارك : [4] "...لا تسألني متى ولد ، ولا أين ولد ، فذلك رجل نشأ في بيئة خاملة، لم تكن تطمع في مجد حتى تقيد تاريخ ميلاده ".

وتلقّى هذا الرجل علومه على أيدي أساتيذ كبار[5]، ولازم بعض علماء المعتزلة وتأثر بأفكارهم وقرأ طائفة من مصنفاتهم، وخاضَ في الجدل والنقاش كما خاضوا ، وطغت عليه النزعة الموسوعية حتى قال فيه ياقوت : [6] " إنه فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة ،ومحقق المتكلمين ،ومتكلم المحققين، إمام البلغاء .... فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة ...".

وذكروا أنه كان يمتهن – على كره منه – حرفة الورقة ، وهي مهنة شاقة كان يشتغل بها الفلاسفة والأدباء إذا افتقروا ولم يجدوا لديهم ما يقتاتون به، فكان يطلق عليها " حرفة الشؤم "[7] . وقد جاء في معجم الأدباء أن أبا حيان كان يقول: [8] "...لقد استولى عليّ الحرف – يعني قلة الحظ، وتمكن مني نكد الزمان إلى الحد الذي لا استرزق، مع صحّة نقلي وتقييد خطّي، وتزويق نسخي، وسلامته من التصحيف والتحريف بمثل ما يسترزق البليد الذي ينسخ النّسخ، ويمسخ الأصل والفرع ".

وامتدَّ به العمر حتى نيف على المائة، فأتاح له هذا الامتداد وقتاً كافياً للقراءة والاطلاع والكتابة والتأليف حتى بلغ وزن المداد الذي أنفقه في إعداد تصانيفه أربعمائة رطل[9] ولهذا يقول فيه آدم متز: [10] " إنه لم يكتب في النثر العربي بعد أبي حيان ما هو أسهل أقوى وأشد تعبيرا عن شخصية صاحبه مما كتب أبو حيان " ويذهب الكيلاني[11] إلى أن التوحيدي كان يحتلّ مكاناً بارزاً في تاريخ النثر الفني العربي، ويضعه في صف الجاحظ الذي كان له تأثيراً كبيراً في توجيه حياة أبي حيان في المجالين: الفكري والأدبي، ويستدل على صحة مذهبه بأن الرجلين يتشابَهان في أسلوب التناول، وفي طريقة التأليف.

كتاب الإمتاع والمؤانسة وقيمته الأدبية

إن لهذا الكتاب من عنوانه نصيباً كبيراً وهو من أكبر الكتب التي صنّفت في القرن الرابع الهجري الذي ازدهرت فيه الكتابة وكثر التأليف. وهو كتاب كفيل بإمتاع قارئه بما يحتوي من علم مؤنس، وأدب ممتع، وفكاهة تصحب الروح فتتنأى بها – لو هنيهات – عن ضغوط الأيام وهمومها وأثقالها، وتريح النفس – ولو إلى حين – من أكدارها وهواجسها ومتاعبها.

وكان العصر الذي صدر فيه عصر ندوات وجلسات تعقد في قصور الأمراء ومجالس الوزراء، وتضمُّ ثلَّةً من أعلام الأدب والشعر والفلسفة وغيرها. ويعدُّ نسيج وحدة بين كتب المجالس والندوات التي عاصرته في التأليف، إذ يكشف عن كثير من الموضوعات الاجتماعية والسياسية والدينية والأخلاقية، ويحلّل سلوك طائفة من الشخصيات التي كانت لامعة في ذلك العصر.

قال ابن منظور في لسان العرب: [12] " مَتُعَ: جادَ وظَرُفَ، والماتِعُ من كلِّ شيءٍ: البالغ في الجودة الغاية في بابه، والمتاع: كل ما ينتفع به من عروض الدنيا قليلها وكثيرها، وأمتع الله فلانا بفلان إمتاعا: أبقاه ليستمتع به فيما يحب من الانتفاع به والسُّرور بمكانه، أمتعه الله بكذا ومتعه، بمعنى، ويقال: أمتعك الله بطول العمر".

وقال في مادة/أَنِسَ[13]: الأَنَسُ: خلاف الوحشة، وهو مصدر قولك: أَنِستُ به – بالكسر – أَنَساً وأَنَسَةً، والأَنَسُ والأُنْسُ: الطمأنينة، والإيناسُ والتَّأنِيسُ خلاف الإيحاشِ.

وكانت العرب القدماء تسمّي يوم الخميس "مؤنساً " لأنهم كانوا يميلون فيه إلى الملاذّ. وجاريةٌ آنسةٌ: إذا كانت طيّبة الحديث، طيبة النَّفس، تحبُّ قربك وحديثك، وجمعها: آنسات وأوانس.

وحين تخيّر أبو حيان هذين اللفظين جميعا اسما لكتابه، وعنوانا له فإنما قصد إلى ذلك قصداً، لأن محتوى الكتاب بموضوعاته ومسائله، وبأسلوبه المتميز، من شأنه أن يمتع القارئ وينفعه، ويدخل السرور والاطمئنان إلى نفسه، ويزيل ما علق في شعاب هذه النفس من وحشةٍ، وما خالطها من حزنٍ، وما استبدّ بِها من أسى، وما عبث بها من كدرٍ، وأن يتحفها بما يلذُّ لها من طيّب الحديث، وعذب الكلامِ.

ويقع كتاب "الإمتاع المؤانسة" في ثلاثة أجزاء، صدرت في السنوات: 1939م، 1942م، 1944م على التوالي، وقام بتحقيقه الأستاذان: أحمد أمين وأحمد الزين، وبذلا في تحقيقه ومراجعته وتصحيحه جهداً ظاهراً، فجاء التّصحيف والتّحريف فيه على أضيق نطاق[14].

وقد صدّر أحمد أمين كتاب "الإمتاع والمؤانسة" بمقدمةٍ، ذكر فيها الأسباب والدوافع التي حملت أبا حيَّان على تصنيفه فقال: [15] " إنَّ أبا الوفاء المهندس كان صديقاً لأبي حيَّان وللوزير أبي عبد الله ابن العارض، فقرَّب أبو الوفاء أبا حيَّان من الوزير، ووصله به، ومدحه عنده، حتى جعل الوزير أبا حيَّان من سمَّارِهِ، فسامره سبعاً وثلاثينَ ليلةً، كان يحادثه فيها، ويطرح الوزير عليه أسئلةً في مسائلَ مختلفةٍ، فيجيب عنها أبو حيَّان. ثمَّ طلب أبو الوفاء من أبي حيَّان أن يقصَّ عليهِ كلَّ ما دارَ بينهُ وبينَ الوزيرِ من حديثٍ، وذكَّرَهُ بنعمتهِ عليه في وصله بالوزير.. فأجاب أبو حيَّان طَلَبَ أبي الوفاء، ونزل على حكمه، وفضَّل أن يدوِّنَ ذلك في كتاب يشتملُ على كلِّ ما دار بينه وبين الوزير.. فكان من ذلك كتاب الإمتاع والمؤانسةِ."

ويميلُ أحمد أمين إلى التَّرجيح بأنَّ أبا عبد الله بن العارض الذي اتَّصَل به أبو حَيَّانَ وسامرهُ بهذه الأحاديثِ، إنما هو أبو عبد الله، الحسينُ بن أحمد بن سَعْدَانَ – وزير صَمْصام الدولة البويهيّ – وهو نفسه الذي طلب إلى التَّوحيديّ أَن يصنّف له كتاب " الصَّداقة والصَّديق " قبل أن يتولى أمر الوزارة.

ومن يمعن النَّظَرَ في الكتابِ يستدلَّ على أنَّ أبا حيَّان كان ذا ثقافةٍ واسعةٍ، توفَّرت له من خلال اطّلاعهِ الغزيرِ، وقراءاتهِ الكثيرةِ، فالكتاب سفرٌ كبيرٌ يشتمل على مسائل متنوعةٍ من كلِّ علمٍ وفَنٍّ، فَفيه الأدب والفلسفة والحيوان والأخلاق، وفيه

موضوعات عن الطَّبيعة والمنطقِ وعلمِ الكلامِ والسياسةِ، والتفسيرِ والحديثِ، واللغةِ والبلاغةِ، والفكاهةِ والمجونِ، وفيه تحليلٌ دقيق لشخصيَّاتِ فلاسفةِ العصرِ وعلمائِهِ وأدبائِهِ، وفيه أحاديثُ عن العاداتِ والتَّقاليدِ وأحاديثِ المجالسِ.

ويغصُّ كتاب: " الإمتاع والمؤانسةِ " بالموضوعات الفلسفيَّةِ والمنطقيَّةِ التي تأثَّرَ فيها التَّوحيديُّ بالواقعِ المعروفِ في عصرهِ، حيث ظهرت طائفةٌ من الفلاسفةِ المسلمينَ، ومن هذه الموضوعاتِ مثلاً: التوحيد، والفرق بين النَّفسِ والرُّوحِ، والعلاقة بين الحسِّ والعقلِ، وتحديد معاني الطَّبيعة، وآراء الفلاسفةِ والمتكلِّمينَ في صلة الفلسفة بالشَّريعةِ، والعقل، والإنسان، والفعل، والانفعال، وما شاكل ذلك.

وترقُدُ إلى جانب هذه الموضوعات الفلسفيَّةِ موضوعاتٌ أخرى في فنونٍ شتَّى، من مثل المفاضلةِ بين البلاغةِ والحسابِ، وبين النَّثر والنَّظمِ، وأحاديثُ طويلةٌ عن الحيوانِ وغرائبهِ، ومسائلُ في النباتِ والمعادنِ، وطائفةٌ من النَّوادرِ عن الطُّفيليِّينَ والبخلاءِ، وأقوالٌ متنوعةٌ في الغناءِ والطَّربِ، وبعضُ الحِكَمِ العربيَّةِ وغيرِ العربيَّةِ، وفكاهاتٌ ماجنةٌ وغير ماجنةٍ، وغير ذلك كثيرٌ.

ولعلَّ هذا الحشدَ الكبيرَ من مسائلِ العلمِ والثَّقافةِ، هو الذي حمل القفطيَّ على أن يقولَ فيه: [16] "هو كتابٌ ممتعٌ على الحقيقةِ لمن له مشاركةٌ في فنونِ العلمِ، فأنَّهُ خاض كلَّ بحرٍ، وغاص كلَّ لُجَّةً، وما أحسنَ ما رأيتُهُ على ظهرِ نسخةٍ من كتابِ الإمتاعِ، بخطِّ بعضِ أهلِ جزيرةِ صقليةَ وهو: ابتدأ أبو حيَّان كتابهُ صوفيًّاً، وتوسَّطَهُ محدِّثًا، وختمهُ سائلاً ملحفاً."

وتوزَّعت موضوعات "الإمتاعِ" ومسائله على أربعين ليلةً، وهو بهذا قريب الشَّبهِ بكتابِ " ألف ليلةٍ وليلةٍ" ولكنَّه – من ناحيةٍ أخرى – يخالفهُ في المنهجِ، وفي أسلوبِ التَّناولِ، ذلك أنَّ ليالي " الإمتاعِ والمؤانسةِ " تتناولُ أفكاراً واقعيةً، وتصطبغ بصبغةٍ عقليَّة، وتمتعُ القارئَ بالفكر والفنِّ والأدبِ والفلسفةِ، وتنقل إليه صوراً حيَّةً من حياةِ المفكِّرينَ، وأخبارِ العلماءِ والأصدقاءِ والخصومِ وذوي السّلطانِ وغيرهم، ثمَّ تجدُها تعني بالحقائقِ كما تُرَى في الطَّبيعةِ دون إغراقٍ في الخيالِ. أمَّا موضوعاتُ " ألفِ ليلةٍ وليلةٍ " فإنَّهَا قد حيكت بأسلوبٍ قَصصيٍّ، وعَنِيَتْ بتصويرِ الحياةِ الشعبيَّةِ بلهوها وحبِّها وغرامِها وفِتنتِها، ولهذا، فإنَّ الخيالَ قد لعبَ فيها دوراً رائداً، كما أنَّها تعتمد على المبالغةِ، واصطناعِ المواقفِ المثيرةِ، وتُحكَى للتسليةِ والترويحِ عن النفسِ.

وكانت موضوعاتُ كتابِ: "الإمتاعِ والمؤانسةِ " ومسائلهُ تثارُ في منتدى ابن العارضِ الذي كان بمثابةِ حلقةٍ علميةٍ ممتازةٍ، يتردَّدُ عليها رؤوسُ الأدبِ والفلسفةِ، وشيوخُ العلمِ والمعرفةِ من أمثال: ابن زرعةَ الفيلسوفِ النَّصرانيِّ، ومسكريهِ صاحبُ كتابِ: "تهذيب الأخلاق" وكتاب: "تجارب الأمم"، وأبي عبيدٍ الخطيب الكاتبِ، وزيد بن رفاعةَ، وأبي سعدٍ بَهرام بن أردَشِيرَ، وأبي حيَّان التَّوحيديِّ، وأبي الوفاءَ المهندسِ، وأضرابِهِم[17]

واعتادَ ابنُ العارضِ على أَنْ يتذاكرَ مع أمثالِ هؤلاءِ العلماءِ في مسائلَ شَتَّى مِنَ العلمِ والمعرفةِ فلم تكن المساجلاتُ تَخْلو من الاستطرادِ وتدعى الخواطرِ، وكادَ يخصُّ

أبا حيَّان في كلِّ ليلةٍ يتمُّ فيها اللقاءُ بطائفةٍ من المسائِلِ الأدبيَّةِ واللُّغويَّةِ والفلسفيَّةِ والعلميَّةِ والعقليَّةِ والمنطقيَّةِ، وما إلى ذلكَ، وتكون – في الغالبِ – مرتجلةً، أو مِمَّا يَسنَحُ به خاطرُ الوزيرِ، ويتردَّدُ في نفسهِ، وقد تكون عفوَ الخاطرِ.

وكانَ على أبي حيَّان أنْ يرتجلَ الإجابةَ ارتجالاً، وأنْ يخوضَ في المسألةِ المطروحةِ دونَ إعدادٍ سابقٍ، كما طلب إليه ذاتَ ليلةٍ أن يفاضل بين العرب والعجمِ، مِمَّا حَملهُ على أنْ يبسطَ الحديثَ عن قضايا الحضاراتِ القديمةِ، والفلسفةِ التاريخيَّةِ. ودعاهُ في ليلةٍ أخرى إلى تناولِ مسألةِ الجبرِ و الاختيارِ، أو حريَّةِ الإرادةِ كما يسمِّيها المَناطِقَة، وفي ليلةٍ عن المحبَّةِ والشَّهوَةِ، وفي أُخرى عن الحِسَابِ والبلاغةِ، ثمَّ عن النَّظمِ والنَّثْرِ، وما شاكَل ذلكَ من مسائِلَ [18].

وقد يرغبُ الوزيرُ في أن يقومَ أبو حيَّان بِجَمْعِ أشْيَاءَ كانَ يَسمَعُها من أهلِ العلمِ والأدبِ لتكونَ موضعَ مناقشةٍ وتعليقٍ. وربَّما يطلبُ إليه أن يفتَتِح الحديث بما يراه من موضوعاتٍ وجيهةٍ، أو يدفعَ إليه رقعةً تتضمَّنُ مسالةً أو مسائِلَ تستدعي التفكيرَ وإعمالَ النَّظَرِ، ليُتيحَ لهُ أنْ يرجعَ إلى بعضِ شيوخهِ، كأبي سعيدٍ السيرافيِّ، وأبي سليمان المنطقيّ، وغيرهما، ليستطلِعَ آراءهمْ في المسألةِ المطروحةِ على بساطِ البحثِ[19] ، لِتَعمَّ الفائدةُ، وينتفعَ بِها الحاضرونَ جميعاً.

وكانَ الوزيرُ يحرصُ على أنْ يختتمَ هذا المجلسُ العلميُّ بطرفةٍ من الطَّرائفِ، أو بِمُلحةٍ من الملحِ، يسمِّيها – في الغالب – "مُلحةَ الوداعِ"، فكانَ يسألُ أبا حيَّان أن يأتيه بحكمةٍ مأثورةٍ، أو عظةٍ خُلُقيةٍ، أو نادرةٍ لطيفةٍ، أو أحدوثةٍ طريفةٍ، أو أبياتٍ شعريَّةٍ،سائرةٍ، ثمَّ ينفَضُّ السَّامِرُ.

وذكرَ أبو حيَّان أنَّهُ كان يرسلُ هذه الأحاديثَ إلى صديقهِ أبي الوفاءِ المهندسِ الذي وصلهُ بالوزيرِ، بعد أن " يُزَبرجَ كثيراً منها بناصعِ اللَّفظِ، ويشرح الغامضَ، ويصلَ المحذوفَ، ويتمَّ المنقوصَ[20] ، دون " أن ينظم معنىً بالتَّحريفِ، أو يميلَ فيه إلى التحويرِ "[21].

وكانَ تصرُّف التَّوحيديِّ هذا سبَبَاً مباشراً في شكِّ الأستاذِ أحمد أمين في أمانتهِ العلميَّةِ وفي نزاهتهِ، فظنَّ أنَّ أبا حيَّان قد تزيَّدَ في بعض هذه الأحاديثِ، وأدخل عليها أشياء غريبةً لم يجر بحثها في مجلس الوزيرِ، ثمَّ أسرَّ إلى صديقه أبي الوفاءِ أن يكتمها عليه حتى لا تقع بين يدي الوزيرِ، ودلَّلَ على صحَّة رأيه برسالةِ السقيفةِ التي وضعها أبو حيَّان على لساني: أبي بكرٍ وعمر – رضي الله عنهما – وضعاً، دون أنْ يصدرَ منهما كثيرٌ مِمَّا نسب إليهما.

وحاولَ الكيلاني [22] أن يدفعَ الشَّكَّ الذي ساورَ نفسَ أحمد أمين، وسوَّغ سلوكَ أبي حيَّان هذا فجعلهُ مرتبطاً بأمرِ المنافسينَ والحاسدينَ الذين يكيدونَ له، ويخوضونَ فيهِ، فهو حينَ فعل ذلك، إنما خافَ على نفسهِ من مزاحمةِ هؤلاءِ جميعاً، على المكانةِ المرموقةِ التي حظيَ بها لدى الوزيرِ، واستَشهَدَ على صدقِ تسويغِه، بقول التَّوحيديِّ نفسهِ: "... لأنَّ البليَّة مضاعفةٌ من جهةِ النُّظراءِ في الصناعةِ، وللحسدِ ثورانٌ في

نفوسِ هذه الجماعة، وقلَّ من يجهدُ جهدهُ في التَّقربِ إلى رئيسٍ أو وزيرٍ، إلا جدَّ في إبعادِهِ من مرامِهِ كلَّ صغيرٍ وكبيرٍ .. ".

على أنَّ من يمعنُ النَّظرَ في قولِ التَّوحيديِّ يتبين لهُ أنَّ الزَّبرَجة بناصِعِ اللَّفظِ، وشرحِ الغامضِ ووصلِ المحذوفِ، وإتمامَ المنقوص، كلُّ ذلكَ يعني أنَّ الرجلَ قد صرفَ همَّهُ – كلَّ همَّهُ – إلى النَّظرِ في الصياغةِ، فأخذ موضوعاتِهِ بالتَّنْسيقِ والتَّرتيبِ والتَّبويبِ، وسلامَةِ العبارةِ وصحَّتِها، فأصلحَ ما وقعَ فيها من خطأ، وأتمَّ ما ألَمَّ بِهَا من نقص، حتى اطمأنَّ إلى أنها أمْسَتْ مُحكَمةُ الربطِ والنسجِ، وكان في الوقتِ نفسهِ، يحافظُ علَى الفكرةِ العامةِ للمسالةِ التي يعالِجُهَا، وعلى العناصرِ التي تَنتَظِمُ هذه الفكرةَ دونَ أنْ يتناولها بالتَّحريفِ والتَّحويرِ، وهذا مسلكٌ تَتَطلَّبُهُ منهجيَّةُ الكتابةِ، ولا عيبَ فيه. ومهما يكنْ من أمر أبي حيان وأمرِ الاختلافِ فيهِ، فإنَّ كتابَ: " الإمتاعِ والمؤانسةِ " يعتبرُ – بحَقٍ – من أبرزِ مُصَنَّفاتِ التَّوحيديِّ، ويُعَدُّ – إلى جَانب هذا – أكثَرها نفعاً وإمتاعاً، وأجلَّها خطراً، ويَنْظُر إليه الأُدَباءُ والنقادُ على أنَّهُ مصدرٌ ذو قيمةٍ كبيرةٍ في الكشفِ عن أدبِ أبي حيان، وعن طرازِ تفكيرِهِ، وعقْليَّتِهِ الموسوعيَّةِ، من جهةٍ، وأنَّهُ يُمِيطُ اللِّثَامَ عن الجوانبِ الفكريةِ و الثَّقافيةِ والاجتماعية في العراق، في النصفِ الثاني من القرنِ الرابعِ الهجريِّ من جهة أخرى.

وتبرزُ أهميَّةُ الكتابِ في منهجِ التَّناولِ والبحثِ، فهو كتابٌ يعني بنقلِ الواقعِ ودراستهِ، والتَّعقيبِ عليه تعقيباً نقدياً، كَتِلكَ الأحداثِ التي جرتْ في بغدادَ، أو تلك التي وصفَ فيها ما رأى وما سَمِعَ في الأَوسَاطِ العلميَّةِ والسِّيَاسِيَّةِ والفكريَّةِ التي لازَمَها وشهدَ أحداثَها، أو تلك التي انتقدَ فيها معاصريهِ من العلماءِ وذوي الجَاهِ والسُّلطانِ انتقاداً التَزَمَ فيهِ أبعدَ حدودِ الصَّرَاحةِ بعدَ إزَالةِ قيودِ الكلفةِ بينَه وبينَ الوزير ابنِ العَارضِ. وهذه الصَّراحَةُ نفسُها هي التي حملتهُ على أن يرجو صَديقَهُ أبا الوفاءِ أن يكتمَ أمرَ مثلِ هذه الأحاديثِ عن آذانِ العَيَّابينَ، وأن يُبقيها بعيدةً عن عيونِ المفسدينَ بعدَ أن أحَسَّ بِشَيءٍ من الحرجِ والقلقِ والتَّخَوُّفِ.

يضافُ إلى ذلك أنَّ كتابَ " الإمتاعِ " هذا، قد تَفرَّدَ في أنَّه يشتملُ على وثِقَتيْنِ علميَّتَيْنِ هامَّتينِ : [23]

- **أولاهما**: ذلكَ النصُّ تَحدَّث فيهِ عن " إخوانِ الصَّفا "، فأعطى فكرةً واضحةً عن هذهِ الجمعيَّةِ السّريَّةِ أو الكتلةِ الفكريَّةِ، فَغَدا مصدراً يصدر عنه كلُّ من همَّ بالكتابةِ عن إخوانِ الصَّفا، من أمثالِ القفطيّ وابن العِبريّ وغيرِهِمَا.
- **<u>والثانيةُ:</u>** وصفُ المناظرةِ العلميَّةِ التي عقدَتْ في بغدادَ بين العالمِ النَّحَويِّ أبي سعيدٍ السِيرَافيّ ومَتَّى ابن يُونُسَ المنطقيّ، وكانَ موضوعُها: المفاضلةُ بينَ المنطِقِ اليُونَانيّ والنحوِ العَرَبيّ، وتُصَوِّرُ لنا تِلكَ المناظرةُ الممتعةُ التي تمَّتْ بِحُضورِ الوزيرِ ابنِ الفُرَاتِ، قِصَّةَ الصِّرَاعِ الفكريّ الذي نشبَ بينَ النحويّينَ والمَنَاطِقَةِ.
- **<u>أسلوبه:</u>**

ويتميَّز أسلوب التَّوحيديّ في كِتابِ " الإمتاعِ " بسهولةِ العبارةِ، وجزالةِ اللَّفظِ، والتَّوفِيقِ بينَ اللَّفظِ والمعنى، ويَتَّسِم بأشياءَ أخرى كالإطالةِ والإطنابِ في تصويرِ

الفكرةِ، والإكثارِ من الازْدِواجِ بينَ العباراتِ لإصابةِ النَّغَمِ المُوسيقيّ، والغوصِ في صميمِ الفكرةِ والتَّعمُّقِ فيها لسبرِ غَوْرِ الموضوعاتِ التي يتناولُها بالدِّراسة والبحثِ، وقد بيَّنا أنَّه قد تأثَّر بأسلوبِ الجاحظِ تأثراً بعيدَ المدَى، فكانَ منَ الطَّبيعيّ أن يسيَر على نهجهِ في تناوُلِ الفكرةِ، وأن يذهبَ مذهبَهُ في معالجتِهِ لها، وأن يحذوَ حذوَهُ في الاهتمامِ بالإسهابِ والإطنابِ.

وفي سبيلِ أن يتَّضِحَ لنا أسلوبُ أبي حيَّان في كتابِ "الإمتاعِ والمؤانسةِ" على حقيقتِهِ، يَنْبَغِي لنا أن نبسُطَ بين يدي هذا البحثِ طائفةً من الموضوعاتِ التي تَحَدَّثَ فيها، فذلكَ – ولا شكَّ – يَجْعلنَا على بَيِّنَةٍ من أمرِ أسلوبِهِ، وعلى صِلَةٍ وثيقةٍ بثقافَتِهِ، وبِنَمَطِ تفكيرِهِ، وبأبعادِ شخْصِيَّتِهِ الأدبيةِ، من ذلكَ مثلاً:

ما يرويهِ من أنَّ ابنَ العارضِ سألَهُ يوماً عن معنى قولِه تعالى[24] : "... هو الأوَّلُ والآخرُ والظَّاهِرُ والبَاطِنُ ..." وَهُو سؤالٌ يدخلُ في صلبِ العقيدةِ، فكانَت إجابَتُهُ: "إنَّ الإشارةَ في " الأوَّلُ " إلى ما بدَأَ اللهُ بهِ منَ الإبداعِ والتصويرِ، والإبرازِ والتكوينِ، والإشارةَ في " الآخرُ " إلى المصيرِ إليهِ في العاقبةِ، على ما يجبُ في الحكمةِ من الإنشاءِ و التَّصريفِ، والإنعامِ والتعريفِ، والهدايةِ والتوقيفِ.

وقد بانَ بالاعتبارِ الصَّحيحِ أنَّهُ – عزَّ وَ جَلَّ – لمَّا كانَ محجَّباً عن الأبصارِ، ظهرتْ آثارهُ في صفحاتِ العالمِ وأجزائِهِ، وحواشيهِ وأثنائِهِ، حتى يكونَ لسانُ الآثارِ داعياً إلى معرفتِهِ، ومعرفتُهُ طريقاً إلى قصدِهِ، وقصدُهُ سبَبَاً للمَكانَةِ عِنْدَهُ والحُظْوَةِ لديهِ.

على أنَّه في احتِجَابِهِ بارزٌ، كما أنه في بُروزِهِ محتَجِبٌ، وبيانُ هذا: أنَّ الحِجَابَ من ناحيةِ الحسِّ، والبروزَ من ناحيةِ العقلِ، فإذا طُلِبَ من جهةِ الحسِّ وجِدَ مَحْجُوباً، وإذا لحِظَ من جهةِ العقلِ وجد بارزاً، وهاتانِ الجهتانِ ليْسَتَا له تعالى، ولكنَّهما للإنسانِ الذي له الحِسُّ والعقلُ، فصارَ بهما كالنَّاظِرِ من مكانين، ومن نظر إلى شيءٍ واحدٍ بعينهِ من مكانين، كانَتْ نسبتُهُ إلى المنظورِ إليهِ مفترقةً".

ويبدو لنا من خلالِ إجابتهِ هذهِ، أثرُ ثَقافتِهِ المنطقيَّةِ واضحاً، فقد رتَّبَ عناصرَ موضوعِهِ ترتيباً منطقيّاً، ووضعَ المقدِّماتِ التي وَصَلتْ به إلى النَّتيجةِ، وسَلَكَ في كُلِّ ذلكَ مسلكاً منطقيّاً على نهجِ علماءِ الكلامِ، والمعتزلةِ منهم خاصَّةً، فبيَّنَ لنا – على طريقتهم-: أنَّ اللهَ – جَلَّتْ قُدرَتُه – لا سبيلَ إلى إدراكِهِ بالحسِّ، وإنَّما يُدْرَكُ بِالعَقْلِ.

على أنَّ هذا العقلَ، لا يستطيعُ أن يدركَ، إلا ما كانَ واقعاً في دائرةِ حِسِّهِ، ولَمَّا كانَ اللهُ – سبحانهُ وتعالى – خارجَ هذهِ الدَّائرةِ، بدا عجزُ الإنسانِ واضحاً عن إدراكِ ذاتِ اللهِ. فإدراكُ وجودِ اللهِ ينبغي لهُ أن يكونَ إدراكاً عقلياً محضاً، يدركُ وجودهُ من وجودِ مخلوقاتِهِ، ومن ضمنِ هذه المخلوقاتِ الإنسانُ نفسهِ، لأنَّ وجودَ المخلوقِ، يقْتَضي بالضَّرورةِ وجودَ خَالقٍ له، فالبَعرةُ تَدلُّ على البَعيرِ، والأثَرُ يَدلُّ على المَسيرِ.

ولمَّا كانَ الإنسانُ أرقى الكائناتِ الحيَّةِ وأَسْمَاهَا، وأبعدها تأثيراً في الحياةِ الدُنيا، وأقدَرَها على إحداثِ التَّغييرِ في الواقعِ، فَقد أولاهُ التَّوحيديُّ عِنَايةً خاصَّةً، فَتَناوَلَ هذا الإنسانَ من جوانبَ عديدةٍ، تناوَلَهُ من حيثُ: طبيعَتُهُ وماهيَّتُهُ، فقامَ بتعريفهِ

تعريفاً فلسفياً على مذهبِ المتكلمينَ، وبيَّنَ أنَّ الحكمَ عليهِ، إنَّمَا يكونُ من خلالِ النَّظَرِ في عقيدتِهِ، وفي فكرِهِ وسلوكِهِ، فهوَ يرتَقي إلى شخصيَّةٍ كاملَةٍ، إذا كانَ فِكرهُ صَحيحاً، وكانت وجهةُ نظرِهِ عن الحياةِ والكونِ صحيحةً، وكانَ سُلوكُهُ في حياتِهِ مطابقاً لعقيدتِهِ وفكرِهِ، يقولُ [25]:

" الإنسانُ هو الشَّيْءُ المَنظومُ بتدبيرِ الطَّبيعة للمادَّةِ المَخصوصَةِ بالصُّوَرِ البَشَريَّةِ، المُؤَيَّدُ بنورِ العقلِ من قِبَلِ الإلهِ، وهذا وصفٌ يأتي على القولِ الشَّائعِ عن الأولين: أنَّه حيٌّ ناطقٌ مائتٌ: حَيٌّ من قِبَلِ الحسِّ والحركةِ، ناطقٌ من قِبَلِ الفكرِ والتَّمييزِ، مائتٌ من قِبَلِ السَّيَلانِ والاستحالةِ. فمن حيثُ هوَ حيٌّ شريكُ الحيوانِ الذي هو جنسُهُ، ومن حيثُ هو مائتٌ، هو شريكُ ما يتبدَّلُ ويتحَلَّلُ، ومن حيثُ هو ناطقٌ، هو إنسانٌ عاقلٌ حَصيفٌ، ومن حيثُ يبلغُ إلى مُشَاكَهَةِ الملكِ بقوَّةِ الاختيارِ البشريِّ، والنُّورِ الإلهيِّ، أعني: يُنْعَتُ في حياتِهِ التي وُهِبَتْ لهُ، بدءاً بصحَّةِ العقيدةِ، وصلاحِ العَمَلِ، وصدقِ القولِ، هوَ مِلكٌ، فإنْ لم يكن مَلِكاً، فهوَ جامِعٌ لصفاتِهِ، ومالِكٌ لحُلِيَتِهِ.

ولمَّا كانَ جنسُهُ مشتملاً على التفاوتِ الطَّويلِ العريضِ، كانَ نوعُهُ مشتَمِلاً على التَّفَاوتِ الطَّويلِ العريضِ ومن كانَ نوعُه كذلكَ، كانت آحادُهُ كذلكَ، وكما أنَّ الجنسَ يرتقي إلى نوعٍ كاملٍ، كذَلكَ النوعُ يرتقي إلى شخصٍ كاملٍ".

ويبدو تَصويرُ التَّوحيديّ لتركيبِ الإنسانِ أكثرَ دقةً ووضوحاً في كتابِ: " الإشاراتِ " ، ولذلك، فإنَّنا لم نجد ما يضيُر في إيرادِ النَّصِّ، لتكتمِلَ بين أيدينا معالمُ الفكرةِ عن نظرةِ هذا الرجلِ إلى الطبيعةِ البشريَّةِ، ويشفَعُ لنا في تجاوزنا جادَّةَ الالتزامِ بنصوصِ "الإمتاعِ " في مثلِ هذا الموضعِ، أنَّ أسلوبَ الأديبِ – أيِّ أديبٍ- جزءٌ لا يتجزَّأ من شخصيَّتِهِ، وأنَّ أسلوبَ التَّوحيديِّ هو التَّوحيديُّ نفسُهُ، وهو هوَ في سائرِ مصنَّفاتِهِ، يقولُ في ذلكَ: [26]

" .. وإذا كانَ الإنسانُ قد عَلِمَ أنَّهُ مركَّبٌ من شيئينِ: أحدُهُما شريفٌ، وهو النفسُ، والآخر دنيٌّ وهو الجسمُ، فاتَّخَذَ للدَّنيءِ منه أطبَّاءَ يعالجونَهُ من أمراضِهِ التي تَعروهُ، ويواظبونَ عليهِ بأقواتِهِ التي تَغذوهُ، ويتعاهدونهُ بأدويتِهِ التي تُنَقِّيهِ، وتركَ أن يفعلَ بالشَّيءِ الشَّريفِ مثلَ ذلكَ – فقد أساءَ الاختيارَ عن بَيِّنَةٍ، وأتى الغلطَ على بصيرةٍ. وأطباءُ هذه النفوسِ هم أهلُ الفَضلِ، وأقواتُها الغاذِيَةُ لها هي الآدابُ المأخوذةُ عنهم، وأدويَتُهم المنقيَّةُ، هي النَّواهي والمواعظُ المسموعَةُ مِنهمْ ..".

ويَتَبنّى أبو حيَّان فكرةَ الفروقِ الفرديَّةِ بينَ بني آدَمَ، ويرى أنَّ البَشَر يتفاوتونَ – فيما بينهم – في العطاءِ والإبداعِ و القدرةِ على الابتكارِ والاستيعابِ، ويختلفونَ في الآراءِ، وفي النَّظرةِ إلى الأشياءِ، وفي إصدارِ الأحكامِ على المسائلِ، فقد يُصدِرُ إنسانٌ حُكمَهُ على فعلٍ ما بأنَّهُ حَسَنٌ، في حين يرى غيرهُ الفعل نفسَهُ بأنه قبيحٌ. وقد تبنَّى التَّوحيديُّ قولَ الفيلسوفِ النَّصرانيُّ عيسى بن زَرعة الذي يتناولُ هذه الفكرةَ، فقالَ: [27]

" إنّي لأعجبُ من ناسٍ يقولونَ: كانَ ينبغي أن يكونَ النَّاسُ على رأيٍ واحدٍ، ومنهاجٍ واحدٍ ، وهذا ما لا يستقيمُ، ولا يقعُ به نظامٌ ... وهَبْ أن يكونَ الناسُ – وكلُّ

واحدٍ منهم- مَلِكاً يأمر وينهى، ويستمعُ له ويطاعُ، فمن كان المأمورَ المؤتمرَ، والمنهيَّ المُنتهي؟! والعاقلُ الحصيفُ يعلمُ، أنه لابدَّ من التَّفاوتِ الذي به يكونُ التَّصالحُ، كالعالمِ والمتعلِّمِ، والآمِرِ والمأمُورِ، والصَّانِعِ والمصنوعِ لهُ.".

وينتهي الأمرُ بأبي حيَّانَ إلى إدانَةِ الإنسانِ، والحطِّ من شَأنِهِ، ويحكم على إنسانِ عصرِهِ بشيءٍ كثيرٍ من القسوةِ، فيتَّهِمَهُ بالتَّردِّي في مزَالِقَ النِّفاقِ وسوءِ الفهمِ، ويَصِمُهُ بمجانبة الدِّينِ، وهجرةِ الخُلُقِ، والتَّنصُّلِ من الفضائلِ والقِيَمِ الرَّفيعَةِ، وربما يعودُ ذلكَ إلى إخفاقِهِ في توثيقِ علاقَتِهِ بغيرِهِ، وفَشَلِهِ في كسبِ وُدِّ معاصريهِ من العلماءِ وذوي النُّفُوذِ، وتشاؤمِهِ من الحياةِ، ووِحدَتِهِ، وتبرُّمِ النَّاسِ بهِ، فأسقطَ ذلك على النَّاسِ، ورماهمْ بقولِهِ: (28)

" الإنسانُ بشرٌ، وبنيتهُ متهافتةٌ، وطينتهُ منتثرةٌ، وله عادةٌ طالبةٌ، وحاجةٌ هاتِكةٌ، ونفسٌ جَمُوحٌ، وعَينٌ طَموحٌ، وعقلٌ طفيفٌ، ورأيٌ ضعيفٌ ...".

وذهبَ أبو حيَّانَ في بحثِ مسائلِهِ وموضوعاتِهِ مذهبَ الفلاسفةِ، فلم يكن ليكتَفيَ بالوقوفِ على ظواهِرِ الأشياءِ والأفعالِ، وإنَّمَا كان يَلِجُ في بواطِنِها، ويغوصُ في أعماقِها، ليخضَّها خَضَّ المفكِّرِ الذي يبحثُ عن زُبدةِ الحقيقةِ، فيُخْضِعُ مادَّةَ بحثِهِ لسلطانِ العقلِ ونفوذِهِ، ويعطي هذا العقلَ صلاحيةَ القياسِ والتَّعليلِ، لتفسيرِ الواقعِ تفسيراً يُسَهِّلُ أمرَ الحكمِ عليهِ. وليسَ أدَلَّ على ذلكَ من تساؤلِهِ:(29) ".. ما النَّفسُ؟ وما كمالُها؟ وما الذي استفادتْ في هذا المكانِ؟ وبأيِّ شيءٍ باينتِ الرُّوحُ؟ وما الرُّوحُ؟ وما صفاتها؟ وما منفعتُها؟ .. وما الإنسانُ؟ وما حدُّه؟ وهل الحدُّ هو الحقيقةُ أم بينهما بونٌ؟.. وما العقلُ؟ وما أنحاؤُهُ؟ وما صنيعهُ؟ وما الفرقُ بين الأنفُسِ؟ أعني: نفسَ عمروٍ وزيدٍ وبكرٍ وخالدٍ؟ .."

ولم يقفْ التَّوحيديُّ عند التَّحديداتِ اللَّفظيَّةِ والتَّعريفاتِ المنطقيَّةِ، بل تجاوزَها إلى استقصاءِ الظَّواهِرِ النَّفسيَّةِ، والتَّنقيبِ عن البواعثِ والدَّوافعِ والعلَلِ- كما بيَّنَّا – فأتاحَ لهُ منهجهُ في دراسةِ النَّفسِ الإنسانيَّةِ أن يكشِفَ عن بعضِ ما تنطوي عليه هذه النَّفسُ من عواطفَ ومشاعرَ وانفعالاتٍ ومُيولٍ، فقرَّرَ – مثلاً – أنَّ الإنسانَ قد يستشعِرُ الخوفَ بلا مُخيفٍ، وأبدى دهشَتَهُ من إحساسِ النَّفسِ بالخوفِ، دونَ وجودِ مؤثِّرٍ خارجيٍّ يبعثُ على هذا الخوفِ، وتساءَلَ عن السَّبَبِ الذي يجعلُ الشَّخْصَ المنظورِ إليهِ يشعرُ بالحرجِ والخجلِ، وطفقَ يلتمسُ السِّرَّ الذي يحملُ النَّفسَ الإنسانيَّةَ على الشُّعورِ بالخجلِ من الفعلِ القبيحِ أحياناً، وعلى التَّفاخُرِ والتَّبَجُّحِ بمثلِ هذا الفِعلِ أحياناً أخرى(30). ولمسَ التَّوحيديُّ أنَّ الإنسانَ يميلُ إلى معرفةِ ما يجري من ذكرِهِ بعدَ أن يقومَ من مجلسِهِ، ويتلهَّفُ على أن يقفَ على حديثِ جلسائِهِ عنهُ بعدَ أن يتحوَّلَ عنهم، وأحسَّ أنَّ هذا الإنسانَ يحِنُّ – حتى – إلى الوقوفِ على ما سوفَ يؤبَّنُ بهِ بعد أن يموتَ، ويودُّ لو يستطيع أن يطَّلِعَ بنفسِهِ على حقيقةِ ما سوفَ يكونُ، أو ما سوفَ يقالُ في ذلكَ الحينِ (31).

وأجهَدَ الرجلُ نفسَهُ في معرفةِ السَّبَبِ الذي يجعلُ الإنسانَ يتوقُ إلى ماضيهِ، حتى لو كانَ ذلك الماضي حافلاً بالفقرِ والشقاءِ والألمِ والمتاعبِ، فتبيَّنَ لهُ أنَّه(32): "

يحنُّ إليهِ حنينَ الإبلِ، ويبكي عليهِ بكاءَ المتمَلْمِلِ... وإن كانَ الماضِي من الزَّمَانِ في ضيقٍ وحاجةٍ وكربٍ وشدةٍ...".

وتَبيَّنَ لهُ بعدَ إطالةِ نظرٍ، أنَّ الإنسانَ – كلُّ إنسانٍ[33] – " قدرتهُ محددةٌ، واستطاعتُهُ متَنَاهِيَةٌ، واختيارُهُ قصيرٌ، وطاقتُهُ معروفةٌ..".

وتأثَّرَ التَّوحيديّ بالجاحظِ- كما قلنا-، وقَفَّى على أثرهِ في بسطِهِ القولَ عن الحيوانِ وصفاتِهِ، فقالَ[34] " ... ثُمَّ قرأتُ عليهِ – يعني: ابن العارضِ – نوادِرَ الحيوانِ، وغرائبَ ما كنتُ سمعتُهُ ووجدتُهُ فزادَ عجباً، وأنا أرويهِ في هذا المكانِ حتى يكونَ تذكرةً وفائدةً – إنْ شاءَ اللهُ تعالى-:

_ يقالُ، إنَّ أسنانَ الرَّجُلِ اثنتان وثلاثونَ سناً، وأسنان المرأةِ ثلاثونَ سناً، وأسنانَ الخصيّ ثمانٍ وعشرونَ سناً،وأسنانَ البقرِ أربعٌ وعشرونَ سِناً، وأسنانَ الشَّاةِ إحْدى وعشرونَ سناً، وأسنانَ التَّيْسِ ثلاثٌ وعشرونَ، وأسنانَ العنزِ تسعَ عشرةَ سناً.

_ ويُحْكى أنَّ الحيوانَ الذي أسنانهُ قليلةٌ، عمرُهُ قصيرٌ، والذي أسنانُهُ كثيرةٌ عمرُهُ طويلٌ.

_ الفيلُ إذا ولدَ، نبتَتْ أسنانُهُ في الحالِ، فأمَّا أسنانُه الكِبَارُ، وأنيابُهُ الكبارُ، فتظهرُ إذا شبَّ وكبُرَ.

_ كلُّ ما كانَ منَ البيضِ مُستطيلاً، محدَّدَ الطَّرَفِ، فهوَ يُفَرِّخُ الإناثَ، وما كانَ مستديراً، عريضَ الأطرافِ، يُفَرِّخُ الذكورَ."

وكانَ أبو حيَّانَ كثيرَ التبرُّمِ والسَّخَطِ والشَّكوى، قضى حياتَهُ كلَّها في الخوفِ والأسى"... والتحسُّرِ على فوتِ المأمولِ، يأكلُ إصبَعَهُ أسَفاً، ويزدَرِدُ ريقَهُ لَهَفاً.." [35]. وربما كانَ هذا الواقعُ المقلقُ سبَباً قوياً في عُزوفِهِ عن الزواجِ والإنجابِ، فقد حمَلت لنا أخبارهُ اليسيرةُ معلومةً تنبئُنا أنَّهُ لم يجد حولَهُ طيلةَ حياتِهِ: "... ولداً نجيباً، وصديقاً حبيباً، وصاحباً قريباً، وتابعاً أديباً، ورئيساً منيباً.."[36]

وكان الرجلُ عَيَّاباً، مفرطاً في ذمِّ النَّاسِ وسبِّهم، مجاهراً برأيِهِ فيهم، مولعاً بنشرِ مَثَالِبِهم، والتَّنَدُّرِ بعيوبِهم، والطَّعنِ في شخصيَّاتِهم، والانتقاص من مكانَتِهم. ولم يَكَد يعتقُ أحداً يعرفهُ منَ الهَجوِ والتَّجريحِ والاتِّهامِ، حتى أنَّهُ قد عرَّضَ بأصدقائِهِ، وطَعَنَ في أصحابِهِ وزُمَلائِهِ، فنَراهُ يقولُ مثلاً:[37] "... متى كانَ ذكرُ المَهتوكِ حراماً، والتَّشنيعُ على الفاسقِ منكراً، والدَّلالةِ على النِّفاقِ خطلاً، وتحذيرُ النَّاسِ من الفاحشِ المُتَفحِّشِ جهلاً ..."؟!

وكان يأخذ نفسه بمراقبة الناس النابهين مراقبه دقيقة، ويتعقب أخطاءهم وسقطاتهم، ويتابع عيوبهم وعوراتهم، وكان إلى جانب هذا، يمتلك عيناً بصيرة نفاذة، وأذنا دائبة على استراق السمع وروحاً نقدية ممتازة، فاستطاع من خلال هذه المؤهلات أن يصف طائفة من كتاب عصره، ممن أحبهم وكرههم، وأن يجيد في وصفه، وفي عرض صوره الأدبية.

وتتميز الصور الأدبية التي عرضها التوحيدي، بأنها صور تركيبية واقعية شاملة، تحيط كلماتها القليلة بجميع خصائص الموصوف النفسية والفكرية والخلقية.

وقد أفلح الرجل في إعطاء صورة مجملة عن موصفه من أقرب سبيل، دون أن يتورط في متاهات الحشو والتحليل، اللذين يفسدان أحيانا – وحدة الصورة وتكاملها ونضوجها، ويضيعان وضوحها ومعالمها، فهي صورة قصيرة، تحوي في سطور قليلة، ما قد يغني عن صفحات. (38)

وتأخذ الصورة عند التوحيدي شكلاً انطباعياً نقدياً، يختلف تماما عن هذا النقد العلمي، الذي يتناول العمل الأدبي بالدراسة والتحليل أولا، ثم يصدر الحكم عليه بعد ذلك. و يهدف من وراء هذا التناول إلى إبراز الحقيقة العلمية المجردة وخدمتها. نقول: إن نقد التوحيدي لم يكن كذلك، وإنما هو نقد تأثيري مصدره العاطفة والوجدان.

وطبع تصوير التوحيدي بطابع الهزل في أغلب الأحيان، فتراه يعمد إلى الواقع المحسوس، فيرسم له صورة مثيرة تشد البصر، وتلفت الانتباه، لأنها خارجة عن المألوف. ونعني بهذا، أنه يحلل العناصر التي تتكون منها الشخصية، ثم يجتهد في إبراز الجوانب الشاذة فيها، ثم يقوم بتضخيم هذه الجوانب، والمبالغة فيها حتى تبدو غريبة، مثيرة للضحك والسخرية، وباعثة على النفور والاشمئزاز، وقد غلب عليه هذا الاتجاه، في أثناء كتابته عن خصومه وحساده.

لقد درج – مثلاً - على التهكم بالوزير، الصاحب بن عباد، وألزم نفسه بإظهار الجوانب المضحكة في حركاته وخلقته، من ذلك التهكم، قوله[39] : "... كان ابن عباد يأتي بالمسجع في أثر كلامه، ومع روية طويلة، وأنفاس مديدة، وحشرجة صدر، وانتفاخ منخريه، والتواء شدقيه، وتعويج عنقه، واللعب بغنفقته فلو رأيته يقرر المسائل على هذه الأمثلة العجيبة، والبيان الشافي، لرأيت عجبا من العجائب، وضربا من الغرائب ... فتراه عند هذا الهذر يتلوى،... ويتشاكى ويتحايل، ويلوي شدقه، ويبلع ريقه..".

على أننا لا نجد ما يمنعنا من عرض صورة أخرى وافية من تلك الصور التي رسمها التوحيدي للصاحب بن عباد، لأنها تعطي فكرة تكاد تكون شاملة عن شخصية الموصوف من جهة، وتدلل على سعة ثقافة أبي حيان، وقدرته على فهم واقع الشخصية التي يتعامل معها من جهة أخرى. ونعني بتلك الصورة قوله[40] ".. قلت: إن الرجل كثير المحفوظ، حاضر الجوانب، فصيح اللسان، قد نتف من كل أدب خفيف أشياء، وأخذ من كل فن أطرافاً، والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة وكتابته مهجنة بطرائقهم، ومناظراته مشوبة[41] بعبارة الكتاب، وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين في أجزائها: كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقا والمنطق والعدد، وليس عنده بالجزء الإلهي خبر، ولا له فيه عين ولا أثر، وهو حسن القيام بالعروض والقوافي، ويقول الشعر، وليس بذاك، وفي بديهته غزارة. وأما رويته فخوارة، وطالعه الجوزاء، والشعرى[42] قريبة منه، يتشبع لمذهب أبي حنيفة، ومقالة الزيدية، ولا يرجع إلى الرقة والرأفة والرحمة.

والناس كلهم محجمون عنه لجرأته وسلاطته واقتداره وبسطته، شديد العقاب، طفيف الثواب، طويل العتاب، بذئ اللسان، يعطي كثيرا قليلا، مغلوب بحرارة الرأس،

سريع الغضب، بعيد الفيئة، قريب الطيرة، حسود حقود حديد، وحسده وقف على أهل الفضل، وحقده سار إلى أهل الكفاية.

أما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته، وأما المنتجعون[43] فيخافون جفوته، وقد قتل خلقا، وأهلك ناسا، ونفى أمة، نخوة وتعنتا وتجبرا وزهوا. وهو مع هذا، يخدعه الصبي، ويخلبه الغبي، لأن المدخل عليه واسع، والمأتى إليه سهل، وذلك بأن يقال: مولانا يتقدم بأن أعار شيئا من كلامه، ورسائل منثوره ومنظومه، فما جبت الأرض إليه من فرغانة ومصر وتفليس إلا لأستفيد كلامه وأفصح به، وأتعلم البلاغة منه، لكأنما رسائل مولانا سور قرآن، وفقره فيها آيات فرقان، واحتجاجه - من ابتدائها إلى انتهائها – برهان فوق برهان، فسبحان من جمع العالم في واحد، وأبرز جميع قدرته في شخص، فيلين عند ذلك ويذوب ويلهى عن كل مهم له. وينسى كل فريضة عليه، ويتقدم إلى الخازن بأن يخرج إليه رسائله مع الورق والورق، ويسهل له الأذن عليه، والوصول إليه، والتمكن من مجلسه، فهذا هذا."

وأكثر أبو حيان من التشنيع على الصاحب، فشرع يرصد أفعاله وحركاته وعاداته وسائر تصرفاته – كما ترى –، ويعرضها بأسلوب يفيض بالتهكم والسخرية والازدراء والتحقير، ولم يترك نقيصة أو مثلبة إلا ألحقها به، وألصقها بضبعه، حتى أنه صنف فيه، وفي الوزير ابن العميد كتابا خاصا، سماه:" مثالب الوزيرين".

ومن صور أبي حيان التي يجسد فيها التدني الخلقي والنذالة، قوله في وصف ابن شاهويه- أحد عمال صمصام الدولة[44]: "... أما ابن شاهوية، فشيخ إزراء، وصاحب مخرقة وكذب ظاهر، كثير الإيهام، شديد التمويه، لا يرجع إلى ود صادق، ولا إلى عقد صحيح، وعهد محفوظ... مذموم الهيئة، ليس هناك كفاية ولا صيانة، ولا ديانة ولا مروءة. وبعد، فهو مشؤوم نكد، ثقيل الروح، شديد البهت قوله الإفساد، وعادته تهجين المهنأ، والشماتة بالعاثر، والتشفي من المنكوب...".

وقوله في وصف ابن مكيخا، صاحب ديوان عضد الدولة [45] ".. أما ابن مكيخا، فرجل نصراني، أرعن خسيس، ما جاء يوما بخير قط، لا في رأي ولا في توسط، وأصحابنا يلقبونه بقفا، وهو منهمك بين اللذائذ، همه أن يتحسى دن الشراب في نفس أو نفسين، ثم يسقط كالجذع اليابس، لا لسان ولا إنسان".

وقد حمله هذا النوع من التصوير، على استعمال الاستثناء والاستدراك والشرط والتمني والنفي وغيرها من الأدوات التي انتفع بها في إظهار العيوب، وكشف العورات، وتغليبها على الصفات المشرقة من مثل :"إلا" و"لكن" و"لولا" و"لا" وما شاكلها، فنراه يصف ابن زرعه فيقول [46] "... أما ابن زرعه، فهو حسن الترجمة، صحيح النقل، كثير الرجوع إلى الكتب، محمود النقل إلى العربية، جيد الوفاء بكل ما جل من الفلسفة، ليس له في دقيقها منفذ، ولا له من لغزها مأخذ، ولولا توزع فكره في التجارة، ومحبته في الربح، وحرصه على الجمع، وشدته على المنع، لكانت قريحته تستجيب له، وغائمته تدر عليه ولكنه مبدد مندد[47] وحب الدنيا يعمي ويصم..".

ويتعقب أسلوب ابن الخمار فيوسعه نقدا، ثم يعمد إلى شخصيته، فيصف سلوكه و تعامله مع غيره ، ويدمغه بما يشين من الخصال الذميمة، فيقول:[48]

"... وأما ابن الخمار ففصيح، سلط الكلام، مديد النفس، طويل العنان، مرضي النقل، كثير التدقيق، لكنه يخلط الدرة بالبعرة، ويفسد السمين بالغث، ويرقع الجديد بالرث، ويشين جميع ذلك بالزهو والصلف، ويزيد في الرقم والسوم، فما يجديه من الفضل يرتجعه بالنقص، وما يعطيه باللطف يسترده بالعنف، وما يصفيه بالصواب يكدره بالإعجاب، ومع هذا يصرع في كل شهر مرة أو مرتين...".

وقد يخالف التوحيدي نفسه الحاقدة أحيانا، ويحملها على ما تكره من إ نصاف الناس، ووضعهم في مواضعهم، والثناء عليهم، ومدحهم بما فيهم، فتراه يشيد بموصوفه، ويذكر ما عرف به من الصفات الحميدة، وما شاع عنه من الفعال الحسنة و السلوك القويم، ولكنه لا يلبث أن يصحو من غفوته، فيعود إلى طبعه الذي طبع عليه، ويسترد باليسرى ما أعطى باليمنى، فيذم موصوفه، ويكيل له الاتهام كيلا، ويصم أسلوبه بعيوب كثيرة، وربما يرميه بالشذوذ العقلي. ولم يعتق أحدا من مثل هذا الاتهام والتجريح، حتى صاحبه مسكويه، فقد وصفه في مجلس الوزير ابن العارض بقوله: [49] "..إنه فقير بين أغنياء، وعيي بين أبيناء.." وقوله في مقام آخر[50]

" .. وأما مسكويه فلطيف اللفظ، رطب الأطراف، رقيق الحواشي، سهل المأخذ، قليل السكب، بطئ السبك، مشهور المعاني، كثير التواني، شديد التوقي، ضعيف الترقي، يرد أكثر مما يصدر، ويتطاول جهده ثم يقصر، ويطير بعيدا، ويقع قريبا، ويسقي من قبل أن يغرس، ويمتح من قبل أن يميه..".

أما أسلوب الحاتمي – صاحب الرسالة الحاتمية - فمختلف تماما - في عرف التوحيدي – عن أسلوب سابقه، ولذلك، نراه يقول فيه:[51]

" .. وأما الحاتمي، فغليظ اللفظ، كثير العقد، يحب أن يكون بدويا قحا وهو لم يتم حضريا، عزيز المحفوظ، جامع بين النظم والنثر، على تشابه بينهما في الجفوة، وقلة السلاسة، و البعد من المسلوك، بادي العورة فيما يقول، لكأنما يبرز ما يخفى، ويكدر ما يصفى، له سكرة في القول، إذا أفاق منها خمر، وإذا خمر سدر، يتطاول شاخصا، فيتضاءل متقاعسا، إذا صدق فهو مهين، وإذا كذب فهو مشين..".

وكان بودنا أن نستزيد من هذه النصوص التي اشتمل عليها كتاب:" الإمتاع و المؤانسة "، من هذا الفن النقدي المتميز، لندلل على سعة أفق التوحيدي، ودقة ملاحظته، ومهارته في عرض صوره، وتمكنه من ناصية لغته، وقدرته على اختيار الألفاظ التي تناسب واقع الحال، و نجاحه في استغلال ألوان البيان والبديع – من تشبيه واستعارة وكناية، ومقابلة ومزاوجة وجناس، وما شاكل ذلك – لإبراز معالم الصورة التي يقبع على رسمها، ولكن ما أوردناه منها يعتبر كافيا – في رأينا على الأقل – لإعطاء فكرة وافية عن أسلوب أبي حيان في الحديث عن الشخصيات الأدبية وغيرها.

الكتابة :-

ونستأنف رحلتنا الأدبية في كتاب:" الإمتاع و المؤانسة "، ونغذ السير حتى نبلغ موضوع الكتابة وإنشاء العبارة العربية، فنرى التوحيدي يرجع هذا الفن الكلامي إلى الطبع أو الصنعة أو هما معا، وينص على أن الحس في الطبع أظهر، وأن العقل في الصنعة أبين، وأن النوع الذي يقوم على الطبع والصنعة جميعا، يجمع بين الحس والعقل، ويدعم مذهبه هذا بعبارة طويلة ينقلها عن أستاذه أبي سليمان السجستاني، يقول فيها:(52)

".. إن الكلام ينبعث – في أول مبادئه – إما عن عفو البديهة، وإما من كد الروية، وإما أن يكون مركبا منهما، وفيه قواهما بالأكثر والأقل، ففضيلة عفو البديهة أنه يكون أصفى، وفضيلة كد الروية أنه يكون أشفى، وفضيلة المركب منهما أنه يكون أوفى.

وعيب عفو البديهة، أن تكون صورة العقل فيه أقل، وعيب كد الروية أن تكون صورة الحس فيه أقل، وعيب المركب منهما بقدر قسطه منهما: الأغلب والأضعف.

والتفاضل الواقع بين البلغاء في النظم والنثر، إنما هو في المركب الذي يسمى تأليفا ورصفا. وقد يجوز أن تكون صورة العقل في البديهة أوضح، وأن تكون صورة الحس في الروية ألوح، إلا أن ذلك من غرائب آثار النفس، ونوادر أفعال الطبيعة، والمدار على العمود الذي سلف نعته، ورسا أصله..".

والكلام الجيد في عرف التوحيدي، هو ذلك الكلام الذي يكون خاليا من التكلف، بريئا من التعسف، يتقبله الذوق، ويطمئن إليه العقل، وتستأنس بسماعه الأذن، فيقول:(53)

".. والمدار على اجتلاب الحلاوة المذوقة بالطبع، واجتناب النبوة الممجوجة بالسمع، والقريحة الصافية قد تكدر، والقريحة الكدرة قد تصفو، وشر آفات البلاغة الاستكراه، وأنصح نصائحها الرضا بالعفو... وكان ابن المقفع يقف قلمه كثيرا، فقيل له في ذلك، فقال : أن الكلام يقف في صدري، فيقف قلمي لأتخيره...".

ويذهب أبو حيان إلى أن فن الكتابة يحتاج إلى شيء كثير من الدربة والمران والممارسة والخبرة، ويتطلب أن يتصف الكاتب بالتأني والروية، وإعمال الفكر، ومراجعة المكتوب والتحقق منه، فليس من طبيعة العمل الفني الجيد أن يقوم على العجلة والتسرع والارتجال والاندفاع، ولذلك نجد التوحيدي يوجه إلى الكاتب – كل كاتب- نصيحة، فيقول له:(54)

".. ليس شئ أنفع للمنشئ من سوء الظن بنفسه، والرجوع إلى غيره، وإن كان دونه في الدرجة، وليس في الدنيا محسوب إلا وهو محتاج إلى تثقيف، والمستعين أحزم من المستبد، ومن تفرد لم يكمل، ومن شاور لم ينقص.

وقد يستعجم المعنى كما يستعجم اللفظ، ويشرد اللفظ كما يند المعنى، وينتثر النظم كما ينتظم النثر، وينحل المعقد كما يعقد المنحل .."

البلاغة:

و يرى أبو حيان، أن البلاغة في التعبير فن عسير المسالك، بعيد المنال، صعب المراس، يتطلب – فيما يتطلبه – جودة الصياغة، وحسن السبك، وصحة التقسيم، وترتيب الألفاظ، ويقتضي أن يكون الكاتب متنبها يقظا، حتى لا يتورط في عيوب التكلف والإخلال والإطالة، وغيرها، فهو يقول:[55]

".. إن الكلام صلف تياه، لا يستجيب لكل إنسان، ولا يصحب كل لسان، وخطره كثير، ومتعاطيه مغرور، و له أرنٌ [56] كأرن المهر، وإباء كإباء الحرون، وزهو كزهو الملك، وخفق كخفق البرق، وهو يتسهل مرة، ويتعسر مرارا، ويذل طورا، ويعز أطوارا..".

على أن الأديب البليغ – في رأي التوحيدي – هو ذلك الأديب الذي يستمد بلاغته من العقل، ويصدر فيها عن التمييز. وهذا يعني أنه ينبغي له أن يمتلك القدرة على فهم واقع المسألة التي يدرسها وأن يبذل الوسع و الطاقة في المناقشة والاستدلال والاستنباط، وأن يلم بالمصطلحات التي يحتاج إليها البليغ، وأن يتحلى بالسليقة الأدبية وبالذوق الفني، حتى يستطيع أن يعزز وجهه نظره بالبراهين العقلية، والحجج النقلية التي تعضد الرأي وتقويه، وتشد من أزره وتسنده، وترفع من مستوى الثقة به، لأن الكلام البليغ عنده ، مركب من:" اللفظ اللغوي، والصوغ الطباعي، والتأليف الصناعي، والاستعمال الاصطلاحي" والبلاغة:[57]

".. حدٌ يجمع ثمرات العقل، وفنٌ يقوم على إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وقد أساء بعض أهل الإنشاء و التحرير إلى فن البلاغة أبلغ إساءة، حين اصطنعوا شتى أساليب التشادق والتفيهق والكذب والخداع، فأوهموا الناس بأن هذا الفن زخرفة وبهرجه وبراعة في الخديعة والاحتيال. وفات هؤلاء، أن البلاغة فن يحتاج إلى دراسة وتحصيل وطول مراس، فان الكاتب لا يكون كاملا، ولا لاسمه مستحقا إلا بعد أن ينهض بدراسة أصول هذه الصناعة، ويجمع إليها أصولا من الفقه، وآيات من القرآن، وعلما واسعا بالحديث، وأخبارا كثيرة مختلفة في فنون شتى، لتكون عدة له عند الحاجة إليها، مع الأمثال السائرة، والآبيات النادرة، والعبارات المأثورة، والتجارب المعهودة، والمجالس المشهورة...".

ويرفض التوحيدي فكرة المفاضلة بين البلاغة و غيرها من سائر العلوم و الفنون، ذلك أن حاجة الإنسان إلى علوم الحساب والهندسة والكيمياء مثلا، لا تنفي حاجته إلى التحرير والإنشاء والكتابة، لأنها وسيلته الممتازة إلى التعبير عن هذه العلوم والمعارف، فإذا لم يكن ملما بالبلاغة، وعارفا بأصولها وجذورها، كان مفتقرا- بالضرورة- إلى إدراك التعبير الدقيق المفهم، الذي يعرض الحقيقة العلمية على وجهها، لذلك، فإنه يخطئ المذهب الذي يرى أن:[58] " من عبر عن نفسه بلفظ ملحون أو محرف، أو موضوع غير موضعه، وأفهم غيره، وبلغ إرادته، وأبلغ غيره، فقد كفى، والزائد على الكفاية فضل، والفضل يستغنى عنه كثيرا .."، لأن الكلام – فيما

يقول – يتغير المراد فيه باختلاف الإعراب، كما يتغير الحكم فيه باختلاف الأسماء، وكما يتغير المفهوم باختلاف الأفعال، وكما ينقلب المعنى باختلاف الحروف.

ويروي لنا أبو حيان، أن الوزير ابن العارض قد قال له في الليلة الخامسة والعشرين: [59]

" أحب أن أسمع كلاما في مراتب النظم والنثر، وإلى أي حد ينتهيان؟ وعلى أي شكل يتفقان؟ وأيهما أجمع للفائدة، وأرجع بالعائدة، وأدخل في الصناعة، وأولى بالبراعة؟

ويستجيب التوحيدي لرغبة الوزير، فيفصل الحديث في هذه المسألة، و يفيض في تفصيله حتى نراه يستحضر كل ما وعاه عن أرباب هذه الصناعة، ويسرد أقوال طائفة كبيرة من البلغاء والكتاب، من أمثال: ابن كعب الأنصاري، وابن نباته، وقدامه بن جعفر، وابن عبيد الكاتب وأبي عابد الكرخي صالح بن علي، وأبي سليمان السجستاني، وأضرابهم.

ويثير أبو حيان مسألة تقديم النثر على الشعر، وتفضيله عليه، ويبسط آراء أولئك الأدباء والنقاد والمفكرين الذين ذهبوا هذا المذهب.

ونحن هنا، لا نستطيع أن نثبت كل ما أورده أبو حيان في هذه المسألة، لأن طبيعة بحثنا لا تحتمل ذلك، ولأن منهجنا في الدراسة، لا يتطلب حصر النصوص جميعا، و إنما يتطلب ذكر بعض الشواهد التي يمكن أن تعطي فكرة واضحة عن هذه المسألة. من ذلك مثلا: رأي أبي عابد الكرخي الذي يقول:[60] ".. النثر أصل الكلام، والنظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل...".

ويورد التوحيدي الأسباب التي حملت الكرخي على تقديم فن النثر، ويطيل في شرح هذه الأسباب أيما إطالة، ولكنه- على كل حال- يحصرها في ثلاثة، نوردها مجملة من غير تفصيل:

- أولها: أن الناس – كل الناس – يقصدون إلى النثر في مبتدأ كلامهم، ويتخذونه وسيلة لقضاء حوائجهم والتعبير عن مقاصدهم، ولا يعرضون لأمر النظم إلا بعد ذلك، ويحملهم عليه أمر عارض، أو حاجة معينة.
- وثانيها: أن الكتب السماوية- قديمها وحديثها – جاءت على ألسنة الرسل و الأنبياء منثورة، مع اختلاف لغاتها.
- و الثالث: أن الوحدة في النثر أظهر منها في الشعر، فضلا عن أن النثر أبعد عن التكلف، وأقرب إلى الفطرة من الشعر المنظوم، الذي يخضع لحصار العروض، و أسر الوزن، وقيد التأليف.
- ثم يقول[61] :" و لهذا قيل: إن من شرف النثر أنه مبرأ من التكلف، منَزَّه عن الضرورة، غني عن الاعتذار والافتقار، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرير، وما هو اكثر من هذا، مما هو مدون في كتب القوافي و العروض لأربابها، الذين استنفذوا غايتهم فيها..".

و يعـزز الآراء التـي تقـدم فـن النثـر علـى فـن الـنظم، بقـول ابـن كعـب الأنصاري[62]:.. إن من شرف النثر، أن النبي –صلى الله عليه وسلم – لم ينطق إلا بـه: آمرا وناهيا، ومستخبرا ومخبرا، وهاديا وواعظا، وغاضبا وراضيا، وما سلب النظم إلا لهبوطه عن درجة النثر، ولا نزه عنه إلا لما فيه من النقص، ولو تساويا لنطق بهما. ولما اختلفا، خصّ بأشرفهما، الذي هو أجول في جميع المواضع وأجلب لكل ما يطلب من المنافع... " ، فالأحاديث النبوية الشريفة، جاءت منثورة، لما في النثر من ليونة وسلامة ومتسع للقول، وموافقة للطبع والعادة، ولأنه الوسيلة التي يتعامل بها الناس جميعا في حياتهم العادية.

ويتحول أبو حيان – بعدئذ- إلى فن الشعر، فيفعل كما فعل حين خاض في مسألة النثر، فاستحضر آراء بعض العلماء الذين يدافعون عن هذا الفن، ويؤثرونه، ويقدمونه على سائر الفنون الكلامية، فنراه يقول: [63]

".. إن من فضائل النظم، أنه صار صناعة بأسرها، تبحر العلماء في دراسة قوافيها وتصاريفها وأعاريضها وبحورها. وما هكذا النثر، فإنه قصر عن هذه الذروة الشامخة، وصار بضاعة رخيصة يتداولها الخاصة والعامة، والنساء والصبيان! هذا، إلى أن الشعر موسيقا ذات إيقاع، فالناس يتغنون به، ويطربون له، في حين، أن النثر كلام عادي، قلما ينجح في اجتلاب الطرب، أو استثارة الهزة!

وفضلا عن ذلك، فإن من فضل النظم، أن الشواهد لا توجد إلا فيه، والحجج لا تؤخذ إلا منه، حتى لقد أصبح الشاعر حجة في نظر الناس أجمعين، وفي مقدمتهم: الحكماء والفقهاء والنحويون واللغويون أنفسهم، والناس يقولون: ما أكمل هذا البليغ لو قرض الشعر، ولا يقولون: ما أشعر هذا الشاعر ولو قدر على النثر! وهذا لغنى الناظم عن الناثر، وفقر الناثر إلى الناظم...".

ويورد رأي أستاذه أبي سليمان الذي يقول[64]:".. إن للنثر فضيلته التي لا تنكر، كما أن للنظم شرفه الذي لا يجحد ولا يسترد، لأن مناقب النثر في مقابلة مناقب النظم، ومثالب النظم في مقابلة مثالب النثر، والذي لا بد منه فيهما: السلامة والدقة، وتجنب العويص، وما يحتاج إلى التأويل والتخليص..".

ويجمل رأي أستاذه في بلاغة كل من النثر والنظم، فينص على[65]: "أن بلاغة النثر أن يكون اللفظ متناولا، والمعنى مشهورا، والتهذيب مستعملا، والتأليف سهلا، والمراد سليما، والرونق عاليا، والحواشي رقيقة، والأمثلة خفيفة المأخذ، والهوادي متصلة والأعجاز مفصلة.

وأما بلاغة الشعر، فهي أن يكون نحوه مقبولا، والمعنى من كل ناحية مكشوفا، واللفظ من الغريب بريئا، والكناية لطيفة، والتصريح احتجاجا، والمؤاخاة موجودة، والمواءمة ظاهرة ..."

ويثبت أبو حيان في نهاية تطوافه بين النظم والنثر حكما دقيقا شاملا على الكلام العربي – شعره ونثره – فيرى أن[66] : "... أحسن الكلام: ما رق لفظه ولطف معناه،

وتلألأ رونقه، وقامت صورته بين نظم كأنه نثر ، ونثر كأنه نظم، يطمع مشهوده بالسمع، ويمتنع مقصوده على الطبع .."

وإذا كان الجانب الأكبر من فلسفة الفن عند أبي حيان قد دار حول فن البلاغة، فذلك، لأنه قد وجد في هذا الفن، الذي نزل به الوحي على الأنبياء والمرسلين أشرف الفنون جميعا فضلا عن أنه بحكم اشتغاله بممارسته، كان أقدر على وصفه وتحليله من كل ما عداه من الفنون، حتى أنه أعد فيه رسالة سماها: " الكلام على الكلام "، وإن كانت هذه الرسالة لم تصلنا، وضاعت كما ضاع غيرها من آثار التوحيدي، ومن سواه من أكابر العلماء.

وتطرق التوحيدي إلى اللغة، فتناول بعض المفردات بالشرح والتفسير، وما يبرز بين اللفظ الواحد منها من فروق ودقائق. ومن أمثلة ذلك، معالجة مسألة: " تفعال وتفعال " - بفتح التاء وكسرها حيث يقول(68):

".. فلما عدت إلى المجلس، قال – يعني: الوزير بن العارض -: ما تحفظ في: تفعالٍ وتفعالٍ فقد اشتبها؟ وفزعت إلي ابن عبيد الكاتب، فلم يكن عنده مقنع، وألقيت على مسكويه، فلم يكن له فيها مطلع، وهذا دليل على دثور الأدب، وبوار العلم، والإعراض عن الكدح في طلبه، فقلت: قال شيخنا أبو سعيد السيرافي الإمام – نضر الله وجهه-: المصادر كلها على " تفعال " – بفتح التاء – وإنما تجئ " تفعال" في الأسماء، وليس بالكثير، قال: وذكر بعض أهل اللغة منها ستة عشر اسما، لا يوجد غيرها، قال: هاتها، قلت منها التبيان..والتلقاء، ومر تهواء من الليل، وتبراك وتعشار وترباع، وهي مواضيع، وتمساح للدابة المعروفة، والتمساح: الرجل الكذاب أيضا.

وتجفاف وتمثال، وتمراد: بيت الحمام، وتلفاق: هو ثوبان يلفقان، وتلقام: سريع اللقم، ويقال أتت الناقة على تضرابها، أي على الوقت الذي ضربها الفحل فيه، وتضراب: كثير الضرب، وتقصار: وهي المخنقة، وتنبال: وهو القصير.

قال: هذا حسن، فما تقول في: تذكار؟ فإن الخوض في هذا المثال، إنما كان من أجل هذا الحرف، فإن أصحابنا كانوا في مجلس الشراب، فاختلفوا فيه؟ فقلت: هذا مصدر وهو مفتوح.

ثم قال: اجمع لي حروفا نظائر لهذا في اللغة، واشرح ما ندر منها، وعرض الشك لكثير من الناس فيها. فقلت السمع، والطاعة مع الشرف بالخدمة .."

ويبدو تأثير الثقافة الواسعة واضحا في منهج أبي حيان، وفي أسلوب تناوله للمسائل العلمية واللغوية، فقد أتاحت له ثقافته في الفلسفة والمنطق أن يدرس اللغة دراسة حسية وعقلية، فتناول بعض الألفاظ اللغوية المترادفة تناولا يفصل فيه بين معانيها الحسية ومعانيها العقلية. ومن الأمثلة على ذلك، أنه يفرق بين لفظي: التمام والكمال، فيذهب إلى أن " التمام " بالمحسوسات أليق، و" الكمال "بالمعقولات ألصق، ويستدل على صحة مذهبه بقوله(69):

".. وحدّ التمام عند أبي سليمان أنه: بلوغ الشيء الحد الذي ما فوقه إفراط، وما دونه تقصير، ولهذا إذا قيل: ما أتم قامتـه! كان أحسن، وإذا قيل: ما أكمل نفسه! كان أجمل ..."

ويفرق بين الإرادة والاختيار، فيرى أن كل مراد مختار، وليس كل مختار مرادا، لأن الإنسان يختار شرب الدواء الكريه، وضرب الولد النجيب، وهو لا يريد، ويختار طرح متاعه في البحر، إذا ألجئ إليه، وهو لا يريد..."[70]

ويفرق بين المحبة والشهوة، فيقرر انهما انفعالان، وأن انفعال الشهوة أشد تأثيرا، وهو ألصق بالطبيعة، بينما يصدر انفعال المحبة عن النفس الفاضلة. [71]

ويتناول ألفاظ: الفرح والراحة، واللذة والحلاوة[72] فيذهب إلى أن الفرح بالقلب، والراحة بالبدن، واللذة بالحلق، والحلاوة بالعين.

الملح والفكاهات :

وخص التوحيدي كتاب: " الإمتاع والمؤانسة " بطائفة كبيرة من الملح والفكاهات والنوادر، التي تدخل على قلب السامع نكهة من السرور والمرح، وتشيع بين أرجاء المجلس روح الاطمئنان والارتياح، وتخفف عن النفوس ما تواجهه من وعثاء الحياة وأثقالها ومتاعبها، فهو يروي على مسامع الوزير أبي عبد الله بن العارض هذه النوادر والملح في الليلة الثامنة عشرة من ليالي الإمتاع، ثم لا يلبث أن يعقب على هذا كله بقوله: [73]

".. فقال – أدام الله دولته، وبسط لديه نعمته – قدم هذا الفن على غيره، وما ظننت أن هذا يطرد في مجلس واحد، وربما عيب هذا النمط كل العيب، ذلك ظلم، لأن النفس تحتاج إلى بشر. وقد بلغني أن ابن عباس كان يقول في مجلسه، بعد الخوض في الكتاب والسنة والفقه والمسائل أحمضوا، وما أراه أراد بذلك إلا لتعديل النفس، لئلا يلحقها كلال الجد، ولتقتبس نشاطاً في المستأنف، ولتستعد لقبول ما يرد عليها فتسمع ..."

وتعتبر فكاهته جزءا لا يتجزأ من صميم فلسفته التشاؤمية التي كانت تطمح إلى هدم الواقع، والتنكر له، والسخرية منه، فلم يكن فن الإضحاك عنده، سوى أداة حادة قاطعة، يدافع بها عن نفسه الموتورة، ويجابه ما يشوب حياته من شدة وقسوة وحرمان. وهو في وجهته هذه يخالف تماما نهج أستاذه الجاحظ، الذي درج على مزج الهزل بالجد، والجد بالهزل، دفعا لملل القارئ وسآمة السامع. وقد كشفت لنا فكاهات التوحيدي وملحه ونوادره عن طبيعة مزاجه النفسي الحاد، حتى أننا نكاد نجد فيها مرآة صادقة لروح ذلك الرجل الذي عاش وحيدا مكدودا فقيرا يائسا خائفا خائبا، سريع التأثر والانفعال، فربما يجد في فكاهته العدوانية هذه متنفسا، وإشباعا لنُزوعه إلى حب الظهور والتفوق والاستعلاء. [74]

ويروي بعض النوادر اللطيفة التي ينفس بها الوالدون عن أنفسهم، ويعبرون من خلالها عن بعض ما يصيبهم من مشقات، وما يواجهون من متاعب بسبب أعباء

الأسرة، وتكاليف الإعالة، من ذلك – مثلا – أن أبا عمارة – قاضي الكوفة – قد سئل يوما: " أي بنيك أثقل؟ فقال: ما فيهم بعد الكبير أثقل من الصغير إلا الأوسط ..."[75]

وذكر أن رجلا أعمى كان يطوف ويسأل بأصفهان، فأعطاه مرة إنسان رغيفا، فدعا له وقال: أحسن الله إليك، وبارك عليك، وجزاك خيرا، ورد غربتك!

فقال له الرجل: ولم ذكرت الغربة في دعائك، وما علمك بالغربة؟

فقال: الآن لي ها هنا عشرون سنة، ما ناولني أحد رغيفا صحيحا.[76]

البخلاء والطفيليون : -

وتحدث أبو حيان عن البخلاء والطفيليين، أسوة بأستاذه الجاحظ، فروى – من ذلك – أن عثمان بن رواح سافر يوما بصحبة رفيق له، فلما كانا معا، قال له الرفيق: امض إلى السوق فاشتر لنا لحما، قال: والله ما أقدر، فمضى الرفيق فاشترى اللحم، ثم قال: قم الآن فأثرد،

قال: والله إني لأعجز عن ذلك، فثرد الرفيق، ثم قال: قم الآن فكل،

فقال: لقد استحييت من كثرة خلافي لك، ولولا ذلك ما فعلت.[77]

أدب الطعام:-

وأفاض أبو حيان في حديثه عن الطعام، حتى نكاد نحس أنه قد استأنس بهذا الحديث، واطمأن إليه، واستمتع به، وسال لعابه رغبة فيه، وازدرد ريقه شوقا إليه، فلا يبغي أن يتحول عن ذكره، أو يخوض في حديثا غيره، فخصه بثلاث ليال كاملة من ليالي " الإمتاع والمؤانسة "، بسط – في أثنائها – الحديث عن نوادر: الطعام والبخل والشراهة والشبع، والجوع والبطنة وغيرها.

وربما يعود هذا التشبث بالحديث عن الطعام إلى عامل نفسي، وميل عضوي، فالرجل قد تعس في حياته، وقاسى كثيرا من آلام الجوع، ومرارة الحرمان، وقد كان يجد في طلب القوت فلا يكاد يعثر عليه، حتى ضاقت به الحياة على رحبها، ففزع إلى صديقه أبي الوفاء المهندس يضج بالشكوى، ويستغيث به في رسالة خاصة، بعث بها إليه، يقول فيها:[78]

" .. اكفني مؤونة الغداء والعشاء، إلى متى الكسيرة اليابسة، والبقيلة الذاوية، والقميص المرقع .. إلى متى التأدم بالخبز والزيتون، قد – والله - بح الحلق، وتغير الخلق .."

وأجهد نفسه في استحضار الآراء الطريفة، والتعريفات اللطيفة لمفهوم الشبع، فأورد طائفة من هذه الآراء التي سالت على ألسنة أفراد من أبناء المجتمع، يمثلون فئات تختلف في طرائق تفكيرها، وفي أنماط معايشها، وفي حظوظها من: اليسر والعسر، والسعة والضيق، والغنى والفقر، والزهد والجشع، والكرم والبخل، فأثبت رأي: الصوفي والزهد والبخيل والطفيلي والجندي والطبيب والمتكلم وغيرهم.

ولعل من أطرف هذه الآراء والتعريفات، ما ورد منها على لسان البخيل الذي يقول: [80]

" الشبع حرام كله، وإنما أحل الله من الأكل ما نفى الخوى، وسكن الصداع، وأمسك الرمق .."

وقد يتندّر في أثناء حديثه عن الطعام، فيرسم للأكل صورة هزلية مثيرة للضحك، باعثة على السخرية، حيث يظهره مقبلا على طعامه بكل جوارحه، ويجعله مستغرقا في مهمته، حتى لكأنه يأكل بعينيه ويديه ورأسه ورجليه جميعا، فهو مشغول عن كل شيء وغائب عن الواقع إلا واقع الطعام، حتى لو أنك سألته عن اسمه، لما استطاع أن يجيبك ولو طلع ولده الغائب عليه لما عرفه، فحبه المفرط للطعام أذهله عن نفسه وأنساه أحب الناس إليه، وأقربهم إلى قلبه. [81]

وعلى هذا، فأن التوحيدي قد أفلح في منافسة الجاحظ في نوادره عن البخلاء، وإن كان للفكاهة عنده طابع عقلي، قد لا نجد له نظيرا عند الجاحظ، فضلا عن أن التوحيدي كان أبرع من الجاحظ في تسجيل المناظرات والمحاورات، وشتى فنون الحديث التي جرت على ألسنة الخاصة والعامة حول أدب المعدة. [82]

وكشف التوحيدي عن انفعالات النفس وأحاسيسها وميولها وأهوائها، ودلّ على تأثير الطرب عليها، وقدرته على تخديرها والعبث بها، والتخفيف من حدتها، والخروج بها – أحيانا - عن وقارها ورزانتها واعتدالها. وأورد استجابة طائفة كبيرة من أصحابه ومعارفه لبعض المؤثرات الجمالية من: حسن طبيعي، وغناء شجي، ورقص بديع، وما إلى ذلك.

وروى عن أحد الصّوفية أنه كان شديد الاستجابة للغناء، ويطرب طربا يغيب به عن الوعي، ويستوحش، فهو إذا سمع غناء إحدى الجواري [83] " ضرب بنفسه الأرض، وتمرّغ في التراب، وهاج وأزبد، وتعفّر شعره ". قال: " وهات من رجالك من يضبطه ويمسكه، ومن يجسر على الدّنو منه، فإنه يعض بنانه، ويخمش بظفره، ويركل برجله ...".

ونلفي أبا حيان لا يستغرب أبدا حين يجد أن الغناء يحدث مثل هذا التأثير القوي على النفس البشرية، فالغناء –في رأيه – أرق شيء خلقه الله، وألينه على الأذن والقلب، أظهره للسرور والفرح، وأنفاه للهم والحزن، خاصة وأنه يقرع السمع وهو منه على مسافة، فتطرب له النفس، ويهتز له البدن، ثم يقول: [84] ".. أعلمت -جعلت فداك- أن الأوائل كانت تقول: من سمع الغناء على حقيقته مات ".

وبعد،

فقد جلنا في كتاب: " الإمتاع والمؤانسة " جولات طويلة، وأمتعنا أنفسنا بمسائله، وآنسنا قلوبنا بقضاياه، وشاركنا مصنفه في أحاديث تلك الليالي التي أسفرت عن إنجاب هذا الكتاب الفذ، نقول: بعد هذا كله، نرى أن نختم حديثنا، وأن نضع حدا لنظراتنا فيه، مع أن النفس تغالبنا على المضي في سبيل الكشف عن جوانب أخرى من خباياه النفسية.

علـى أننـا نسـتطيع أن نقـول، بـأن هـذا الكتـاب يعـد موسـوعة علميـة، ووثيقـة تاريخيـة، ودراسـة نقديـة، ومصـنفا اجتماعيـا، وتعقـب الأحـداث الجاريـة، والقضـايا الحادثـة، والمسـائل الفائتـة، وقـام برصـدها وتصـنيفها وتـدوينها والتعليـق عليهـا، ثـم كسوتها بكساء من الخيال جميل، أظهرها بمظهر يغري القارئ والسامع جميعا بقراءة محتـوى الكتـاب، ومعايشـة مادتـه العلميـة، والوقـوف علـى أفكـار مصـنفه وفلسـفته وتوجهاته.

و" الإمتاع " كتاب زاخر بالموضوعات الدسمة المشوقة، ولو أننا أطعنا النفس، واستجبنا لرغبتها، وأطلقنا لها عنان البحث، لمضت تغذّ السير في طريقها للوقوف على هذه الموضوعات والاستمتاع بمعانيها ومبانيها، وهذا -فيما نرى- يخرج بنا عما نحن بصدده، لأن غايتنا هي إعطاء فكرة عن هذا الكتاب، وعن الجهود العلمية الجادة التي بذلها مصنفه، في سبيل إخراجه على هذه الصورة المشرقة التي تثري قارئه بثقافة عريضة.

ونستطيع أن نزعم - على كل حال، بأن النصوص التي أثبتناها، والشواهد التي عرضناها، تعطي هذه الفكرة أو تكاد، وبهذا نكون قد أفلحنا في تحقيق الهدف الذي درسنا الكتاب- أساسا - من أجل تحقيقه.

الحواشي

1 مقدمة كتاب الإشارات الإلهية /ج
2 مقدمة كتاب الإشارات الإلهية /هـ
3 معجم الأدباء /5/15
4 النثر الفني /133/2
5 منهم : أبو سليمان محمد بن طاهر السجستاني، وأبو زكريا يحي بن عدي النصراني الفيلسوف، وعلى بن عيسى الرماني وأبو سعيد السيرافي، وأبو حامد أحمد بن بشير. انظر: الإمتاع /23/1، ومعجم الأدباء /15/8
6 ياقوت / معجم الأدباء /5/15
7 الكيلاني / أبو حيان /19
8 معجم الأدباء /13/15
9 روضات الجنات /205/4
10 الحضارة الإسلامية /416/1
11 أبو حيان /75
12 لسان العرب /204/10- مادة: متع
13 لسان العرب/306/7- مادة: أنس

14 زكريا/ أبو حيان
15 مقدمة كتاب الإمتاع/1/ ص، د، هـ
16 أخبار الحكماء /383
17 انظر:زكريا/ أبو حيان/ 113
18 الكيلاني/ أبو حيان /37
19 زكريا/ أبو حيان/113
20 الإمتاع/1/2
21 الإمتاع/336/3
22 الكيلاني / أبو حيان/ 38-وانظر: الإمتاع/1/2
23 انظر: أبو حيان للكيلاني /38-وأبو حيان لزكريا/154
24 الإمتاع/190/2
25 الإمتاع/113/3،112-وانظر: الإمتاع/63/1
26 الإرشادات الإلهية/399
27 الإمتاع /130/3-131
28 الإمتاع/14/1-وانظر: الإمتاع /3/1،227/17
29 الإمتاع/106/3
30 زكريا/ أبو حيان/206
31 زكريا/ أبو حيان/204-205
32 الإمتاع/61/3-وانظر: الإمتاع أيضا/120/3
33 الإمتاع/151/3
34 الإمتاع/159/1-161
35 الإمتاع/7/1
36 الهوامل والشوامل /37
37 مثالب الوزيرين/49
38 الكيلاني/ أبو حيان/67
39 الإمتاع/64/1-وانظر: الإمتاع أيضا/205/3-206
40 الإمتاع/54/1
41 مشوبة: مختلطة
42 الشعرى: نجم في الجوزاء
43 المنتجع: طالب العطاء من قولهم :انتجع الكلأ:طلبه
44 الإمتاع/141/1-وانظر:الإمتاع أيضا/43/1
45 الإمتاع/44/1
46 الإمتاع/33/1

47 منندد: اسم مفعول،أصله:ند،أي :نفر وهام على وجهه
48 الإمتاع/33/1
49 الإمتاع/35/1
50 الإمتاع/136/1
51 الإمتاع/135/1-وانظر:الإمتاع أيضا/134/1
52 الإمتاع/132/2
53 الإمتاع/65/1
54 الإمتاع/65/1
55 الإمتاع/9/1
56 الأرن:النشاط
57 الإمتاع/96/1-100
58 الإمتاع/102/1
59 الإمتاع/130/2
60 الإمتاع/132/2
61 الإمتاع/133/2-وانظر:الإمتاع /135/2،134
62 الإمتاع/135/2
63 الإمتاع/136/2-137
64 الإمتاع/138/2
65 الإمتاع/141/2
66 الإمتاع/145/2
67 زكريا/أبو حيان/295
68 الإمتاع/2/2-3-وانظر:الإمتاع أيضا/196/2
69 الإمتاع/135/3
70 الإمتاع/105/3
71 الإمتاع/106/3
72 الإمتاع/126/2
73 الإمتاع/60/2
74 انظر: زكريا/ أبو حيان /250-251
75 الإمتاع/56/2
76 الإمتاع/28/2-وانظر:الإمتاع/57/2
77 الإمتاع/40/3-وانظر:الإمتاع أيضا/36/3
78 الإمتاع/227/3
79 الإمتاع/33/3

80 الإمتاع/20/3
81 الإمتاع/81/3-انظر:الإمتاع أيضا/20/3
82 زكريا/ أبو حيان /265
83 الإمتاع/166/2
84 الإمتاع/80/2

المصادر والمراجع

1	أحمد أمين □ مقدمة كتاب الإشارات الإلهية القاهرة – مطبعة جامعة فؤاد الأول *مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة القاهرة- لجنة التأليف والترجمة والنشر – الجزء الأول	1950م 1939م
2	التوحيدي ، أبو حيان ، على بن محمد بن العباس □ الإشارات الإلهية والأنفاس الروحية تحقيق: عبد الرحمن بدوي – القاهرة- مطبعة جامعة فؤاد الأول	1950م
3	□ الإمتاع والمؤانسة تحقيق: احمد أمين واحمد الزين- القاهرة- لجنة التأليف والترجمة والنشر ثلاثة أجزاء: الأول 1939م، والثاني:1942م، والثالث:19944 □ مثالب الوزيرين	1961م
4	تحقيق : إبراهيم الكيلاني- دمشق – دار الفكر العربي التوحيدي ، أبو حيان ، على بن محمد ، أبو على، احمد بن محمد	1923-1930م
5	بن مسكويه الهوامل والشوامل تحقيق : احمد أمين والسيد احمد صقر – القاهرة – لجنة التأليف والترجمة والنشر الحموي ، ياقوت معجم الأدباء تحقيق : مرجليوث- القاهرة – مطبعة هندية –ط2 –	
6	زكريا إبراهيم ابو حيان التوحيدي القاهرة – المؤسسة المصرية العامة – إعلام العرب رقم :35	دون تاريخ
7	زكي مبارك النثر الفني في القرن الرابع الهجري القاهرة –المكتبة التجارية الكبرى – ط2 –	1957م
8	القفطي ، أبو حسن ، على بن يوسف	

	اخبار الحكماء بغداد –مكتبة المثنى	1903م
9	الكيلاني ، إبراهيم: أبو حيان التوحيدي القاهرة – دار المعارف – مجموعة نوابغ الفكر العربي رقم : 21	1957م
10	متز ، آدم الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريدة – القاهرة – مكتبة الخانجي –ط4 –	1967م
11		
12	ابن منظور ، جمال الدين ، محمد بن مكرم الأنصاري لسان العرب مصورة عن طبعة بولاق – القاهرة – الدار المصرية للتأليف والترجمة	1300ه
13	الموسوي ، محمد باقر الخوانساري روضات الجنان في أحوال العلماء والسادات تحقيق : أسد الله إسماعيليان – طهران –مكتبة إسماعيليان –	1390ه

ملخص

موضوع البحث : " كتاب الإمتاع والمؤانسة وقيمته الأدبية "، وهو بحث معني بدراسة واقع الكتاب، وتحليل محتواه، وإبراز قيمته العلمية، وبدراسة شخصية التوحيدي وأسلوبه في تناول موضوعاته ومسائله.

والكتاب سفر كبير يحوي مسائل كثيرة في الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، والسياسة والأخلاق، والتفسير والحديث، والأدب واللغة والبلاغة، ومسائل في الطبيعة والحيوان، وتحليلا لشخصيات فلاسفة عصره وعلمائه وأدبائه، وموضوعات عن العادات والتقاليد وأحاديث المجالس.

وتوزعت موضوعاته ومسائله على أربعين ليلة، كانت تطرح في منتدى الوزير ابن العارض الذي يخص أبا حيان – في كل ليلة منها – بطائفة من المسائل، إما مرتجلة، وإما مما يسنح به خاطره، وإما أن يدفع إليه برقعة تتضمن مسائل تستدعي البحث والنظر، ليتيح له فرصة الرجوع إلى شيوخه.

وتبرز قيمة الكتاب: في منهجه، وفي أسلوب تناوله لمسائله، وفي تفرده بالحديث عن: جماعة "إخوان الصفا" واتجاههم الفكري، وعن المناظرة التي عقدت في بغداد بين العالم المعتزلي النحوي أبي سعيد السيرافي والعالم النصراني المنطقي بشر بن يونس في مسألة: " المفاضلة بين المنطق اليوناني والنحو العربي " التي تمثل واقع الصراع الفكري بين المعتزلة وأهل البدع .